تهامة الجندي

صوَرنا الماكرة



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

صوَرنا الماكِرة

Our Shrewd Pictures

تهامة الجندي

Touhama Al Jondi

Our Shrewd Pictures
By: Touhama Al Jondi

Edition: 2
Published: March 2023

First Published: December 2017
Publisher: Riad El-Rayyes Book
Beirut-Lebanon

ISBN: 978-9953-21-668-3

الكتاب: صُوَرنا الماكِرة
تأليف: تهامة الجندي
الطبعة الثانية: آذار/مارس 2023

الطبعة الأولى: كانون الأول/ديسمبر 2017
الناشر: رياض الريس للكتب والنشر
بيروت-لبنان

ISBN: 978-9953-21-668-3

ليس لديَّ بطولاتٌ لأرويها

حياتي كلُّها هزائم وخسارات

أَضعها على الأوراق

وأنحني أمام شهداء الحرية ومعتقَلي الضمير

في مسائل الضمير، لا مكان لقانون الأغلبية.

غاندي

المحتويات

عودة المَنفي إلى منفاه

غابة ملعونة وأحلام في ذِمة المهربين

من أرض الغياب

أبوس روحك حلب

في البدء كان الحب

ذاكرتي مثقوبة ولا أرى البعيد

"الحياة معركة، علينا أن نخوضها بشرف"، وفي ساحة النِّزال نحاربُ ونهادنُ على قدر الموازين من نعتبرهم أعداء، أو ربما منافسين. صراع خارجي، على ضراوته من طبيعة الوجود وطبائعه، ومن ضرورات الاصطفاء، وتفعيل حس المبادرة، إن احتدم على مستوى الفكر واللِّسان، ولم ينتقل إلى العنف الجسدي، وعند المواجهة لا يكون الكائن وحيدًا، بل يتحرك ضمن شبكة من الداعمين والانتماءات، بحسب ما يملك من قناعات وقابليات.

أما معركة الذات فهي شأن آخر، الساحة فيك، وأنتَ تقبّع وحيدًا أمام مسلَّماتكَ، ذاكرتك، خزين معارفك، رغباتك، أقنعتك الاجتماعية وأناك الخاصة. تتهكم، تدين، تتعذب، تطلق رصاصكَ وتتلقى المدافع، تشهد تصدُّعات قلبكَ، الانفجارات في عقلك، تتحسس نزيفك، وتسمع عويلكَ، كأنك تمشي في كربلاء. هي ذاتها المعركة التي أخوضُ منذ فجر الثورة السورية، فجر أَرَّختُ به ميلادي الفعلي، حين وجدتني أخرجُ سعيدة من شرنقة الموت إلى قلب الحياة، وربما فعلَ مثلي كل سوري حر، ترعرع وعاش في "مزرعة الرعب".

لم تكن أدواتي كافية لخوض معركتي مع النظام: فم أخرس، يدان خاويتان، قلب ينهشه الوجع وتستوطنه المرارة، ذاكرة مثقوبة ومشتتة يفيض منها الفشل، عقل تثقله كل أفكار الحداثة، جسد مريض

يعيش كل تبكيت الجهل والتخلف، وعزلتي قاتلة. كنت أجاهر بتأييدي للثورة، أغفو وأُصبحُ أمام شاشة التلفاز والحاسوب، أغني مع المتظاهرين، أبكي الضحايا، ولم أجرؤ على الذهاب إلى الميدان. الخوف سلبني اللحظة التي انتظرتها مدى حياتي، أن أفتح صفحتي البيضاء، ولم يبقَ لي سوى الحرب ضد ذاتي.

قبل ذلك كنتُ بنيتُ تجربتي في المناطق التي أعتبرها نبيلة، أقف إلى صف الفقير والمظلوم والمعارض، لا أعاشر الأثرياء، لا أصافح الظالم، ولا أتزلَّف إلى المسؤولين. هذه خطوطي الحمراء، ما عداها أكره مبدأ "العيّن بالعيّن، والسن بالسن". الحب ديني والتسامح إيماني. أحفر الصخر بيديَّ، حتى أعيش، لا أشتكي، ولا أطلب العون. لا أذكر أني تسببتُ بأذية أي مخلوق عن قصد، أو خضتُ معركة مع أحد، كنت أتجاهل خصمي، وأدير خدي الأيمن والأيسر لمن يستهويه الصفّع، أسقطُ وحدي، وأنهض وحدي من رمادي. كنت المسّلمة السُنية التي تشعل شموعها لمريم العذراء، وتميل لأفكار المسيح: "من قال للظالم سلامًا، فقد اشترك معه في الظلم"، "أن يدخل الجمل من خُرم الإبرة، أسهل من أن يدخل الغني باب الجنة"، "طوبى للودعاء، فإنهم يرثون الأرض... طوبى للرحماء... طوبى للساعين إلى السلام، فإنهم أبناء الله".

على المستوى الشخصي، لم يكن لديَّ أية مشكلة أو إشكال، عشتُ زاهدة في قوقعتي كالسلحفاة، أكدُّ مثل النمل، أكره المظاهر والادعاء، اكتفي بالقليل، وأنام بضمير مرتاح. لكن على المستوى

العام كانت تشغلني وتقلقني القضايا الكبرى وأشعر بالعجز. كنت أهجسُ بمشاريع الحداثة والتقدم، علّمنة الدولة والقوانين، العدالة الاجتماعية والمساواة بين الجنسين، المسألة القومية وقضية فلسطين، وكنت أتلقَّفُ الهزيمة بعد الأخرى، أشجبُ واستنكرُ بحذر بالغ، فقد شَذبتْ لغتي أحوال الطوارئ منذ عقود.

في تلك القوقعة المخملية من المثل العليا والأحلام، نسيّْتُ أنوثتي، ذبحتُ جسدي على مسلخ الاستقلالية واحترام الذات، جلدتُ نفسي وقمعتها أكثر مما تطيق. كنتُ أتجرعُ الاستبداد وأفرغه في داخلي، وأنا أتشدقُ بحرية زائفة وأتحدى الجميع بمظهري الفاضح. لم أشكك يوما بمبادئي العرجاء، قلمي الأكتع ومسلماتي الخرساء؟! كنت أشكُ بمن تخلى عن تاريخ النضال. لم أتساءل، من هم أولئك الذين أناصرهم، أو أناصبهم العداء؟ لماذا لا أعرفهم ولا يعرفوني، وهل يستحقون مني مثل هذا الفرز؟ أين أنا من كل هؤلاء، ماذا أريد، وبماذا أرغب، ولماذا لا أخوض معركتي، وأكتفي بمحاكمة نفسي والآخرين وأنا أمدُّ ساقايَّ وأعبُ لفافتي؟ لم أنتبه، لماذا أخاف الحب وأحارب عاطفتي؟ لم ألحظ الشقاء الذي يرشح من أطرافي، ولم أكترث بالزمن الذي يتسرب في غفلة مني، حتى لجأتُ إلى بيروت.

في بيروت، الأفكار تمشي على الأرض، والرغبات تطير بكَ إلى السماء السابعة. كل ما أراه يسحرني ويبدو متاحًا إن رغبتُ، عليَّ فقط أن أفكر كيف وأن أجتهد كي أصل. لا مكان للكسل والسهولة والعطايا في هذه الجنة الخضراء، هي الأقرب إلى نمط الحياة

الغربية بكل أطياف جمالها وتوحشها، وهي النموذج الرأسمالي الأول الذي أحتكُ به، بعد تجارب عيشي التي اقتصرتْ على الدول الاشتراكية.

وأنا أهيمُ مفتونة، أبحثُ عن إحداثيات جديدة ونقاط ارتكاز، اجتاحني الزلزال، وبدأت ثورتي. أنا ابنة مفارقات الحياة والمصادفات الغريبة، ثمرة الغواية والعشق الحرام، وُلدتُ بجوار البحر، في ليلة القدر، من العام الأخير للوحدة بين سورية ومصر، رضعتُ العروبة مع حليبي، ورفعت وجه عبد الناصر في أولى أيقوناتي. تكلمتُ الفرنسية في المغرب قبل لغتي، تناولت خبز الفقراء في دير الراهبات ريثما يعود والديَّ من السفر، انتقلت من مدينة لأخرى مثل الغجر، ولم أستقر في أي منها أكثر من عقد.

بدايتي سعيدة، وفي السادسة من عمري، كنتُ الابنة المدللة لأب يشغل منصب رئيس اتحاد نقابات العمال، يوم كان للحركة النقابية وزنها ومعناها في سوريا، ويوم كان المنصب يوازي منصب رئاسة الجمهورية، في أول عهد دولة بعث "الشباطيين"، حينها أمضيتُ الصف الأول في مدرسة "الفرنسيسكان" الخاصة، وكان أبي مشغولًا أغلب الوقت. كنت أزوره في مكتبه، أتابع خطبه الحماسية على التلفاز بشغف بالغ، ولا أفقه تمامًا ما يقول، لكن شعارات الوحدة والحرية والاشتراكية حُفرتْ عميقًا في وجداني، وما لبثتْ أن أهدتني إحساسي الغامض الأول بالهزيمة في الخامس من حزيران 1967.

جيش الصهاينة على أعتاب دمشق، تسربتْ الشائعات، وأختفى المسؤولون من العاصمة. أبي لم يغادر مقره في الاتحاد، حشدَ حوله "الكتائب العمالية المسلَّحة"، وقال: إن استطاعوا، فليدخلوها على جثث العمال السوريين. بعد النكسة استقال من منصبه ومن حزب البعث، وطالب بفتح تحقيق حول حقيقة ما جرى، ثم غاب في زنزانته المنفردة. لم أعِ الملابسات، ولماذا نقلتنا أمي إلى مسقط رأسي في اللاذقية ودخلتُ مدارس الحكومة، لكني بدأت أعي جيدًا أني فقدتُ امتيازات أبناء السلطة على ضآلتها ذاك الحين، ولازمتني لعنة أولاد المعارضين.

أين أبي، متى أراه؟ ولا أحد يفسر لي سر غيابه الجارح، وبعد عام وعدتني أمي، أن نذهب لزيارته أول أيام العيد، وفي الطريق كان قلبي يقفز من الشوق والفرح. لم يكن عندي أدنى تصوُّر عن معنى السجن، وبدأت أتعرف عليه مذ أن اعترضنا أول حاجز لحفظ الأمن، عاملونا بخشونة، فتشونا جيدًا، نكشوا أكياس الطعام، فتحوا أقراص الكبَّة والحلوى. لم أكترث، ما إن انتهوا، حتى ركضت كالملسوعة باتجاه باحة السجن، أفتش عن حبيبي. لن أنسى خيبتي وألمي، كان وجهه بالكاد يُرى من خلف قضبان الحديد، وراحتي الصغيرة تمتد علَّها تستطيع لمسه، ولا تصل. لم أعانق أبي، ولم يضمني، كما حلمتُ، تبادلنا النظرات وبعض الجمل مثل الغرباء، وانتهى موعد الزيارة. من يومها كرهتُ كل الأعياد، وارتفعت في داخلي جدران زنزانتي.

ثلاثة أعوام، لم يكن أمامي غير وجه الله، أصلي وأصوم وأبتهل إليه، أذهب مع أقاربي إلى مزارات الأولياء، أطلبُ عونهم، ولم يخرج أبي من سجنه حتى فاجأ حافظ الأسد الجميع بحركته التصحيحية، أطلقَ سراحه واعتقلَ رفاقه السابقين. لشهر وأكثر امتلأ بيتنا بالمهنئين من كل المناطق وكل المشارب، وبدأتُ أعي لحد ما معنى "شخصية بمواصفات جماهيرية". بعدها طاش صواب أبي المُلحد، حين رآني أتعبد، ومضتْ أربع سنين ونحن نتشاجر حول وجود الرب، وفي كل مرة يقول: كيف تؤمنين بمن ظلمكَ، أجاز ضرّبكِ وجلّدكِ ورجّمكِ حتى الموت لأتفه الأسباب، ولم أقتنع، لكنه حين قارن ذاك العنف بقول المسيح "من كان منكم بلا خطيئة، فليرجمها" هجرتُ عبادتي، والتحقتُ بماركس الذي جعلني مقياسًا لتطور المجتمعات، ومنحني كامل حقوقي أُسوة بالرجال.

عدتُ حبيبة والدي ورفيقة مشاويره، نذهب إلى المسرح والسينما، نرتاد مقاهي الرصيف وملاهي السهر، ومن خلاله تعرفتُ في مراهقتي إلى أهم رموز الثقافة والسياسة في بلدي. كنت الصغيرة وسط كبارٍ أغنوا مداركي بتجاربهم وسعة اطلاعهم وحسهم الثوري، فصار الكتاب عالمي وغايتي حتى ألحقَ بهم، وكنت أُقلِّدُ أبي، أُدوِّن المقاطع والجمل التي تروق لي في دفتر خاص. يقول الفيلسوف الفرنسي بليز باسكال: "جدارة الإنسان ماثلة في الفكر"، والبير بان "افتح معجمًا بسيطًا، تجد أن الفكر الحر مشايع للبحث الحر، واعلم أن من حق الإنسان في الفكر الحر، أن يفحص جميع

الآراء وينتقدها، وأن يناقش جميع المسائل، من دون أن يستطيع شيء من الأشياء عرقلة هذا الحق، أو وضع حد له".

قرأتُ شكسبير، ثم سارتر وفرنسوا ساغان وسيمون دي بوفوار والبيرتو مورافيا... تأثرت بالوجودية، ألهبتني جرأة البوح وحرية الجسد، لكن الاكتئاب أعياني. قرأت مسرحيات بريخت، "العقب الحديدية"، "درب الآلام"، "الأم"... غسلني ماء المثل، لبسني ورد الأحلام، وعلى جدراني علَّقتُ صور ماركس، انجلز، لينين، عشقتُ جيفارا، وغنّيتُ لإمام "شرفت يا نيكسون بابا/ يا بتعاع الوترغيت/ عملولك إيمة وشيمة/ سلاطين الفول والزيت...".

قرأتُ "البيان الشيوعي"، وتحمستُ لدكتاتورية الطبقة العاملة، ولفكرة أن البشر هم من يصنعون أقدارهم، وأن الاستغلال والاغتراب سمتان ملازمتان للمجتمعات الطبقية، وكلاهما يعنيان أن يُعامل الإنسان كسلعة، لا كقيمة وجوهر. قرأت أطروحة لينين حول "القضية القومية"، واقتنعتُ أن انقسام الأمم إلى أمم مضطَهِدة وأخرى مضّطهَدة، هو جوهر الإمبريالية وماهيتها، وأن حل المسألة لا يستوي إلاّ في سياق نضال الشعوب ضد الاستعمار والإلحاق، بارتباط وثيق بين إنجاز الثورتين الديمقراطية والاشتراكية، وفي ظل جبهة عريضة للتضامن الأممي. وراقتني رؤية بليخانوف لدور النخب المثقفة في عملية التغيير، ولم أكن وحدي من تؤمن بالماركسية واللينينية، كان أكثر من نصف سكان الأرض، يقفون إلى صفي.

وفي بلدي، لم أكن الوحيدة، معظم جيلي كان مولعًا بالكتاب، متحمسًا لليسار، وكانت مدينتي الساحلية، الوادعة، تحضن سكانها من كل الأديان والطوائف، وتفتح عقلها على الحداثة. كنا نتابع نادي السينما، نحتفل برأس السنة، لم نكن نلحظ الحجاب إلاَّ ما ندر، وباستثناء الجوامع والمدارس كانت جلساتنا مختلطة، وكانت الفتيات والنساء يرتدين لباس البحر على الشاطئ، والأثواب القصيرة في الأماكن العامة، بينما كانت خلايا "رابطة العمل الشيوعي"، تتشكل بالسر، و"الراية الحمراء" يقرأها الشباب. كانت اللاذقية تشهد حراكًا فكريًا وسياسيًا على غاية من الأهمية، سوف ينطفئ بعد حين. ولم يكن الحراك يقتصر عليها فقط، بل يشمل أغلب المناطق السورية، التي بدأت تتململ من حركة التصحيح، بعد دخول الجيش السوري إلى لبنان.

اندلعتْ الاحتجاجات الشعبية في أغلب المدن السورية، الواحدة تلو الأخرى، وأُخمدتْ عن بِكرة أبيها، بعنف لم يعرفه السوريون حتى ذاك التاريخ، وفي ظل تعتيم إعلامي كامل. امتلأتْ السجون بالمعتقلين من كافة الأطياف والانتماءات السياسية، المنتمين والمشتبه بانتمائهم. انتشر مسلسل التفجيرات والاغتيالات، ارتُكبت المجازر، دُمرت أحياء بكاملها، وكانت مدينة حماه الخاتمة الأكثر دموية في المشهد الحزين. وحتى اليوم ما من أحد يعلم حقيقة ما جرى بالتفصيل، كم بلغ عدد الضحايا والمفقودين، وكم بلغتْ تكاليف الخراب؟. أُتلفتْ ملفات المجزرة، أُعيد بناء وترقيع الأحياء

المتضررة، أُعيدتْ كتابة التاريخ. حينها تجرعتُ هزيمتي الثانية، تراجع اليسار السوري والليبراليون، وصعد الإسلام المعتدل ثم المتشدد بالتدريج.

قبل خاتمة العلقم، كانت مدينتي نالت نصيبها من حظر التجوال والمداهمات والاعتقالات والاغتيالات عام 1979، وأمام عيون الساكنين هَدمتْ الجرافات حي الشعب "الشيخ ضاهر". فرغتْ المقاهي والملاهي ومنتديات الثقافة من روّادها، وأضحتْ اللاذقية أشبه بالثُكنة العسكرية، حواجز الأمن في كل مكان، وعلى أبواب الدوائر الحكومية وهيئات التعليم، تفتشُ الجميع، وتسجنُ من تشاء، سيارات الشبيحة، من أقرباء العائلة الحاكمة وأتباعهم تتسابق في الشوارع، تخرقُ الأنظمة وقوانين الدولة، تتحرش بمن يعجبها من الجميلات، ولا أحد يجرؤ على الكلام.

بيروت: أكتوبر 2013

يوم كدتُ أَذوبُ من الشوق

"فزَّاعة الأب" انتصبتْ في قلوب السوريين، وخيَّم الصمت والوجوم، حتى قبل أن تنتهي حملات التأديب، أدرك الجميع أن القبضة الحديدية التي تمسكُ بهم أقوى من الدولة ودستورها، وفوق كل الشعارات التي تغنَّت بها خُطب التنصيب... في ذاك الزمن الأسود ابتسمتْ لي السماء، وحصلتُ على منحتي الدراسية في بلغاريا، حزمتُ حقيبتي الصغيرة، وضعت مئة دولار في جيبي، وطرتُ إلى بلد أجهل عنه كل شيء، عدا أنه أحد معاقل الاشتراكية، سوف يجمعني بالملائكة الشيوعيين، ومن على متن الطائرة نظرتُ إلى سوريا، وقلت لنفسي: لن أعود قبل أن يسقط النظام.

في صوفيا استقبلني الثلج أبيضًا، هشًا، يغطي الشوارع والأشجار وحواف المباني، مشهد رائع لن تنساه صبية مثلي، لم تعرف في مدينتها الساحلية سوى الهطول وبريق الشمس. بعدها ضقتُ بالبياض المضروب حولي كأنه الكفن، لم أعتد المشي على الجليد وكلّما حاولتُ وقعت، أثمالي ونقودي التي جلبتها وفوقها منحتي المتواضعة، لن تكفني لدرء البرد عني، وكان حاجز اللغة يعيقني ويشعرني أني طفلة بليدة، تتعثر في التعبير عن أبسط الأمور، طفلة ضائعة، تبحث عن سريرها الدافئ في اللاذقية، وتلقي حنينها في حضن البريد.

قضيتُ شهري الأول عند عائلة من أصدقاء والدي، قبل أن أدخل غرفتي في السكن الجامعي بعد نهار طويل من تسيير إجراءات التسجيل. كنتُ متعبة وجائعة، أحمل حقيبة ملابسي، وكانتْ تسند ظهرها إلى زجاج النافذة. وضعتُ الحقيبة على الأرض، وحييّتُها بانحناءة من رأسي، ابتسمتْ وغمغمتْ مُرحِبة بعبارةٍ لم أفهمها. سألتها إن كانت تتكلم الفرنسية؟ قالتْ: قليلًا، قلتُ: وأنا كذلك. دعتني إلى كوب من الشاي، وبالكثير من الإشارات والقليل من الكلمات بدأنا نتعارف ونتفاهم. ساعدتني في ترتيب سريري وأغراضي، خرجتْ لبعض الوقت، وعادتْ تحمل لي العشاء، وضعته أمامي وانصرفتْ، بعد أن تمنتْ لي ليلة هادئة.

شريكتي البلغارية في السكن، قدِمتْ لتوها من مدينة الورود "كازنلك"، إلى العاصمة، وبدأتْ سنتها الأولى في المعهد العالي للفنون المسرحية، قسم مسرح الأطفال، وأنا السّورية بنت البحر الأبيض، أبدأ تعلم اللغة البلغارية في معهد الأجانب. كنا طالبتيّن فقيرتيّن، متشابهتيّن بالشكل وبالطباع، كلتانا تدخل العشرين بأحلام أوسع من السماء، نشعر بقليل من الغربة في الوسط الجديد، ونريد أن نخترق الحواجز والأسرار بسرعة البرق. ولم تمضِ أسابيع قليلة على لقائنا الأول، حتى أصبحنا صديقتيّن مقربتيّن، ينطبق علينا قول امرئ القيس: "وكل غريب للغريب نسيب".

بعد أكثر من شهريّن كنت وحيدة في غرفتي، أكتب وظائفي، حين نقر بابي في المساء، وأطلَ بعينيّه الخضراوتيّن، بشرته الحنطية،

شعره الأسود وشاربه، وسألني بالبلغارية عن شريكتي في الغرفة. اعتقدتُ أنه سوري، وأجبته بالعربية، "لم تعد من الجامعة بعد"، ابتسم وقال: "أنا أشبه العرب، وأنتِ تشبهين البلغاريات".

استأذنَ أن ينتظرها ريثما تعود، وافقتُ على مضض، الغرفة بالكاد تتسع للطاولة الكبيرة، الكراسي والأَسِرة الثلاث، وأنا منهمكة بتحضير دروسي. دخلَ وجلس أمامي، ارتبكتُ وأغلقت دفاتري، عرضتُ عليه فنجان من الشاي، شربنا، تحدثنا قليلًا، وساعدني في وظائفي، قبل أن تفتح صديقتي علينا الباب.

تكررتْ زياراته المسائية، يسألُ عنها وينتظرها، يعلّمني البلغارية، ويقهقه على طريقتي في اللفظ وأخطائي، أسقيه الشاي والقهوة بالهال، أطعمه المُكسَّرات والحلويات السورية، ويُفتن بمذاقها حتى خُيّل لي أنه يجاملني، وفي البداية اعتقدتُ أنه حبيب صديقتي، وبعدها أدركتُ أنه يأتي لرؤيتي، وبتُ أنتظر قدومه بفارغ الصبر، وأَتعمد أن أكون وحدي.

اقتربَ رأس السنة، ودعتني صديقتي أن نقضي المناسبة عند أهلها في "كازنلك"، وفي موعد الانطلاق كانت مفاجأتي سعيدة أن صديقنا المشترك هو من سيقلّنا. الحرارة أقل من الصفر، وكلتانا واقفة تنتظره أن يزيل الثلج عن زجاج سيارته الـ"لادا"، مشيتُ إلى باب السيارة، تمايلتُ وقلت "بردتْ، افتحني"، قال باسمًا "بكل سرور"، وهي صحّحتْ "افتح لي".

وصلنا المدينة بعد ثلاث ساعات، ولم أستطع أن أتبين ملامحها التي غابت تحت ندف الثلج والمساء، لكن منزل العائلة كان دافئًا، بموقد كبير، وأرضية خشبية يغطيها السجاد، وهم كانوا في غاية اللطف، مائدتهم عامرة بألذ الأطباق البلغارية، والنبيذ الأحمر من صنع أيديهم. صديقي بقربي، يسكب لي الطعام، يصب الشراب، يرقص معي، يحاول اختراق مسافة الأمان التي اعتدتُ أن أضعها بيني وبين الآخرين، ابتعدُ وأقول "أنا عربية"، يقلّدني ويضحك، وحين أعلنتْ الساعة قدوم سنة 1981، لم تكن قبلته بريئة، ولم أكن أعرفُ طعم القبل.

قطَّعتْ الأم قالب الحلوى ووزعته علينا، وفي قطعتي ظهرت علامة الحظ، صفق لي الجميع، وأهدوني أجمل الأماني. منذ تلك اللحظة صار لي أهل في بلغاريا، ودعتهم مساء اليوم التالي، وعدتُ إلى صوفيا مع صديقي، وفي الطريق طلب مني الزواج، قال "لأجلكِ، سأشهر إسلامي"، لم أجبه، ضحكتُ من شدة ارتباكي، قدَّم لي البوظة التي أحبها، وسألته "وين المخدة؟"، "بدك تنامي"، "لأ، بدي آكل"، "بتقصدي الملعقة".

عاشقان مشينا في شوارع صوفيا، يده تشبك يدي، تمسح وجهي، تداعب شعري... عرَّفني إلى أهله وأصدقائه، قدَّمني إليهم "زوجة المستقبل"، وببلغاريتي الركيكة حدثته عن بلدي وحياتي، علَّمته عبارات الحب بلغتي. أعجبه معنى اسمه بالعربية، واستطاب أن أناديه به، قرأ قرءآني وراقه تعدد الزوجات. قرأتُ إنجيله وفي

الكنائس أوقدتُ له الشموع. كان حبيبي مشدود القوام، قوي البنية، في سنتة السادسة والعشرين، خاض تجارب عديدة مع النساء قبلي، ويستغرب انعدام خبرتي، حاول أن يشعرني بأنوثتي، تشنجتُ ورفضتُ، احترم تمنُّعي ولم يفهمه قط.

لا أعرف مفاتيح جسدي، لا أشعر به، لم أُعدُّه لقبول المتعة، أعددته لدخول السجن وصد التحرُّش بي. لا أشرب المُسّكرات حتى يظل يقظًا ومتنبهًا لمن حوله، لا أعطيه المسكّنات، أتركه يتألم ويتألم وأقيس صبري، وكنتُ أحيانًا أختبر طاقته على الاحتمال، مرة أطفأتُ سيجارتي على ذراعي، ومرة هرستُ كأس الزجاج بيدي ورحتُ أرقب قطرات دمي، وكان يُجن جنوني إذا لمسني أحدهم في الطريق.

لم تكن رغبتي أن أقاطع مراهقتي، حين دخلتُها كانت الاغتيالات والسجون بدأت تحصد السوريين، وكنتُ من أُسرِ المعارضين، لم يكن الخوف استولى على قلبي بعد، لكنها فترة سوداء خرجت منها منهكة، وحين التقيتُ حبيبي كنت طفلة تبحث عن أمان ينقصها، أتكوَّر في حضنه، وألقي رأسي المتعب على صدره، لا أشعر بالإثارة، ولا أدري أني أثيره.

دعاني لقضاء عيد المرأة في فندق على الجبل، خفتُ ورفضت، أصر وقال إن لزم الأمر سوف يتزوجني اللحظة، لم يعد يحتمل هذا الحب العذري، لم أفهم تمامًا، واستغربتُ ما الذي ينقصه؟ تشاحنا وتشاجرنا للمرة الأولى، وتوَعدني إن لم أذهب معه، أن يذهب مع

غيري، وقلتُ افعل ما يحلو لكَ، غادرني مقهورًا، وفي الثامن من آذار انتظرته طويلًا، لم يهاتفني، ولم يأتِ لتهنئتي ورؤية ورود زملائي التي ملأتْ غرفتي ووصلتْ عند الباب. لم أنم جيدًا تلك الليلة، وفي الصباح الباكر حزمتُ حقيبتي، مزقتُ رقم هاتفه، وانتقلتُ إلى غرفة أخرى.

لم أترك عنواني الجديد لأحد، بعد اليوم لن يراني، المدينة الجامعية تمتد لمساحات مترامية وفيها قرابة مئة بلوك سكني، تفصل بينها الشوارع العريضة، الحدائق والمخازن والمقاهي والملاعب ومطعم الطلبة، وسكني الجديد في المنطقة الحديثة، أبعد ما يكون عن البناء القديم الذي كنت فيه، أبدًا لن يعثر عليَّ، إن رغب في لقائي.

استلمتُ مفتاح غرفتي الجديدة، بدأتُ أرتب أغراضي، ووقعتْ صورته الصغيرة من بين كتبي، حملتُها، نظرت إليها، تحسستها بأصابعي، رفعتها إلى فمي، قبلتها ووضعتها على مكتبي. أيام وصرتُ أحنُ إلى لمسة يديّه، ذراعيّه تطوّق خصري، أتذكره وأشعر بالرغبة تسري في دمي، شوقي إليه يضغط قلبي، يشتت ذهني، يعذبني، ويمنعني من النوم. أريد ان أراه ولم أحفظ عناوينه، أهيم في الطرقات، أذهب إلى الأمكنة التي كنا نرتادها، ولا تجمعني به المصادفات. شهر كامل أعيتني مشاعر لم أعرفها في حياتي، ولا أدري كيف أداويها؟.

يوم كدتُ أموتُ من الشوق، قادتنا معلِّمتنا في معهد اللغة إلى "حديقة الحرية"، أكبر وأجمل الحدائق التي تتوسط صوفيا، وتمتد في

قلبها عدة كيلومترات، مشينا طويلًا ووصلنا إلى "بحيرة الأماني" أو الاسم الذي أطلقته المعلِّمة على بحرة اصطناعية بطول عدة أمتار في الربع الأخير من الحديقة. كان الصباح ربيعيًا مشمسًا، وكان المكان أشبه بالجنة، أشجار الصنوبر والصفصاف تتوّج الفضاء، والهواء معطر برائحة الحب، العشب الناعم وزهر البراري يرسم الأرض، شقائق النعمان والغاردينيا تتمايل على وجه البحيرة، وفي أعماقها تتلألأ نقود معدنية صغيرة.

وقفنا مسحورين نتأمل الجنة، وبعيون خجولة نسترق النظر إلى صور العشق المنثور على المقاعد وتحت الظلال. قالتْ معلِّمتنا: النقود في قلب البحيرة أمنيات المحبين، جرِّبوا حظكم، بسرعة تمتمتْ شفاهنا البكر أمانينا وألقتها في الماء، وكان رجائي أن يعود إليَّ حبيبي، وحين رجعتُ إلى سكني في المدينة الجامعية وجدته قريبًا من المدخل.

حين رأيتُه من بعيد في ذاك النهار المقدَّس جالسًا على المقعد الخشبي، ينتظر عودتي، كدتُ أطير من الفرح، وددت لو أركض نحوه، أقفز وأعانقه، أصحبه إلى غرفتي وأدعه يأخذني كيف يشاء. لكني جمدتُ في مكاني، وحين اقتربَ مني ليحضنني، أبعدته وقلتُ "آسفة صار عندي حبيب غيرك"، حاول جري للحديث وقطعته، رأيت الدمع يصعد إلى عينيّه، أدرت له ظهري وتابعت طريقي. دخلت عزلتي وبكيت قسوتي، كان جسدي معطوبًا تمامًا، يربكني ويقهرني ويتصرف على خلاف رغبتي، وكان عليَّ أن أنتظر عاميّن

قبل أن نتصالح، وأعرف ما أريد، وسوف تنتهي هدنتي مع القدر بانتهاء دراستي، وأرجع إلى "مملكة الرعب" تسرقني الكوابح من حالي.

جرحي الغائر فلسطين

خيبتي بسقوط أقنعة الملائكة الشيوعيين، أَوْدعتني قلب ثوار فلسطين. لم أُخطط للأمر، المصادفات تكفَّلتْ بترتيب كل شيء، وصاروا حياتي الجديدة وقدري في البلد الغريب. أرتدي "فلّدتهم" وألفُّ عنقي بـ"حطّتهم"، أعشق لهجتهم وأغني ثورتهم، على أرضهم وشتاتهم تسري روحي وعذابهم ينزف في داخلي. عودتهم حلمي، قضيتهم نصري، منظمة التحرير دولتي في منفاي، وتهتدي بوصلتي بقول "الحكيم" جورج حبش: "تحرير التراب الفلسطيني، يبدأ بتحرير دول الطوق من التبعية والطغاة".

كانوا الحياة التي اخترتها بملء خاطري، وعشتها بكل عاطفتي وحواسي، ومن بعدهم غادرني قلبي وهجرني الفرح.

لستُ الوحيدة، من هامتّ بوجه فلسطين، عشاقها ومريدوها من كل بقاع الأرض بالملايين، ومنظمة التحرير تفتح حضنها الدافئ، لكل الثوار والهاربين من أنظمة القمع، عربًا كانوا أم أجانب. المنظمة كانت أول وآخر كيان أممي، ديمقراطي، عابر للدول والقارات، قام على أرض العروبة في النصف الثاني من القرن العشرين. وإلى المنظمة الأعجوبة لجأ والدي، وحين كان في تونس، وكنت في زيارته، ورافقتُه إلى إحدى أماسي محمود درويش، التقيتُ أبا عمار، اقتربَ منّا وسلَّم، قبّلني من جبيني، التفتَ إلى أبي، وقال: "هدي بنتي، مثل ما هي بنتك"، ومن دون طلبي أو علمي، أمر بصرف

منحة لي، خمسون دولارًا أقبضها كل شهر، خلال فترة دراستي للدكتوراه في بلغاريا، وأنَّى يحلو لي السفر، كان يخصّني بتذكرة الدرجة الأولى. لن أنسى تواضع "الختّيار" وجهه، كوفيّته، كرمه، وسوف أحتمي بعينيّه الطيبتيّن كلّما لاقتني صور جلادي.

وماذا بعد...؟

وضعتُ قلمي وأوراقي جانبًا، أشعلت سيجارتي، ورحت أتأمل أبشع بيت مفروش استأجرته في حياتي، غرفة واحدة على سطح بناية في حي "ركن الدين"، سرير حديدي في الزاوية، مقعد رث، خزانة صغيرة، حمام بائس، ومطبخ ضيق يقتصر على بوتغاز وحيد العين. صدوع على الجدران، ثقوب في السقف تدخل منها الريح وتصفر، برد، والمدفأة الاسطوانية الرفيعة تحتاج للمازوت، وما من هاتف أو مذياع أو تلفاز يواسي وحدتي. البيوت الكثيرة التي سكنتها، في كل المدن التي أقمتُ فيها، كانت أنيقة، مزودة بمشعّات تدفئة ومياه ساخنة، تحوي كل وسائل الاتصال. كيف لي أن أعتد العيش في بيت الأشباح هذا؟.

أنقذني الجرس من تأملاتي وأسئلتي. من الطارق؟ أنا لا أتبادل الزيارات مع أحد. بعد تردد فتحتُ بابي بحذر، رأيته أمامي وتسمرّتُ، دخلَ وأغلق الباب، ضمَّني، أَبعدّته، وبيدي أشرتُ أن يجلس، صببّتُ له قهوة الصباح، ولبعض الوقت ساد الصمت، وعلتْ أنفاسنا المربكة...

–كيف حالك؟

–منيحة

–ناطرة حدا؟

–ناطرتك.

ابتسمتْ عيْناه، واضّطربَ قلبي. قمتُ بحركات لا معنى لها، مشيت إلى أول الغرفة وعدّت، نقلتُ قهوتي وتبغي من مكان لآخر ولم أجلس، دخلتُ الحمام، نظرت إلى المرآة، ولم يرق لي وجهي المتعب. لماذا لم يخبرني بقدومه؟ كنت تهيأتُ لاستقباله، ماذا يريد مني بعد عامين؟! خرجتُ وجلستُ قبالته، تأملني مليًا وقال: "كبرّتِ"، زفرتُ: "دخلتُ سنتي الثانية والثلاثين". سألني، ماذا أعمل؟ أشعلت لفافتي، ونفخّتُ: "أحاور الدخان".

–دكتورة وما في شغل! كام أجار هالغرفة؟.

–خمسة آلاف.

–مبلغ كبير لعاطل عن العمل.

–مبلغ كبير للموظف كمان، متوسط دخل السوري ما بيتجاوز ثلاثة آلاف ليرة.

أنهى قهوته، وقلتُ: علينا أن نغادر، الحي محافظ، وجيراني يراقبون بابي، ويتنصتون عليَّ، أشعر بالضيق...

–خمس شهور مرت على رجعتي من بلغاريا، وما قدرت أتأقلم.

–موضروري، بدي آخدك معي.

–لوين؟

–بعدين.

حملتُ ملابسي، واتجهت إلى الحمام، استوقفني: "البسي هون"، نظرتُ إليه ببرود، وأغلقتُ الباب بيننا.

ارتديتُ جينزي وكنزتي، سرّحت شعري الطويل، وضعت الكحل وأحمر الشفاه، وابتسمت، عاد رونقي. تذكرتُ وأنا أخرج إليه، أنه جاءني في يوم ميلاده، السابع من كانون، قبلّتُ جبينه، وتمنيّتُ له العمر السعيد. "لسه فاكرة؟"، "اطلع قبلي كرمى للجيران، وانتظرني في نهاية الشارع!".

***

أسير إليه، وفي داخلي يستيقظ أيلول من عام 1982، حين جمعنا لأول مرة حفل مشترك للطلبة السوريين والفلسطينيين، نظّمته لجنة العمل الطوعي في جنوب بلغاريا. كنت أقرأ الشعر، وكان يغني قصائد المقاومة، وفي اليوم التالي جمعنا قطار العودة إلى صوفيا من جديد. المسافة طويلة، لم أشأ أن أقضها في الحديث مع شاب بالكاد أعرفه، يحاول جري للكلام، ولا يحيد نظره عني، أخرجتُ رواية "الأبله" من حقيبتي، واختبأت بين السطور.

خرج من المقطورة، وعاد بعد قليل، مد لي فنجان القهوة والسيجارة، وقال: حضورِكِ آسر على المسرح، وقبل أن أنهي شكري الخجول، أخذ يدندن بصوته الجميل: "في الزمن القادم، حين يكون العالم ملكًا للفقراء، وملاعب للفرح الأممي، سألملم من عينيك الحزن...". صمتَ فجأة، انقبضتْ ملامحه، وقال: عدّتُ لتوي من بيروت، استشهد رفاقي... وقبل أن يكمل جملته، انحنى،

أخفى وجهه بين راحتيه، وأجهش بالبكاء... نهضتُ من مكاني إلى جواره، أشعلتُ له سيجارة، وقلت: سجّلتُ اسمي في قائمة المتطوِّعين، وقبل أن يأخذونا، انتهتْ الحرب. بكيتُ، وتمنيت الموت قبل أن أراكم تخرجون.

رقَّ الحديث بيننا، أخبرني أنه من سكان الأردن، ومن أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، يدرس الهندسة الإلكترونية بناء على فرز المنح ورغبة أهله، لكنه يهوى الأدب والفنون، ولو قيِّض له أن يغيِّر فرعه، لدرس الصحافة مثلي، أو اختار الإخراج المسرحي. حدثني عن أهله ووصفهم بفلاحيّ القرون الوسطى البسطاء. عن طفولته، كيف سرق ساعة عمه، وزرعها في الحقل، كي تنبت ساعات كثيرة، يبيعها ويشتري بثمنها الحلوى. كيف هاجروا من فلسطين بعد هزيمة حزيران... تنهد وقال: أحسدكِ، عندك وطن، حين تنهين دراستك، تعودين إليه، تجدين عملًا، تتزوجين وتنجبين، أنا لا أدري في أي بلد أكون، وبأي رصاص أُقتل.

***

أنا التي أُحسد على الوطن السعيد، وأقبضُ المستقبل بيدي، وصلتُ إليه، تجاوزته، ولم أنتبه. شدَّني: "هيه... شو بكِ؟"، حمّلقتُ في وجهه قليلًا، قبل أن أتعرّف عليه: "امتى جيت من عمّان؟"، "قبل ما إجي لعندك"، "وامتى بدك تسافر؟"، "وقت ما بدك". ضحكتُ، وقال: "يا الله.. شو اشتقت لضحكتك". أوقفَ سيارة أجرة، وقلّتُ للسائق:

إلى "الأجنحة" في حي الشعّلان، مقهى صغير اعتدت أن أرتاده بمفردي. زحام، وحركة السير بطيئة، وأنا أعبُّ لفافتي، أحدّق في النافذة، ولا أرى سوى شبابي، يفور طريًا على الزجاج...

***

بعد شهر من لقاء القطار طلبَ مني الزواج، ووافقت على طلبه بعد عام. أخذنا إذن أهلي وأهله، كتبْنا الكِتاب، وأسقطتُ حقي في المهر والمؤخّر، كنتُ أريد الحب ولا أبيع نفسي. سافرنا إلى برلين الشرقية، حيث يقيم أبي، اشترينا الخواتم، واخترتُ أرخصها. احتفلنا مع الأصدقاء المقربين في مطعم جميل وسط المدينة، التقطنا الكثير من الصور، لكن الشريط احترق. هل كانت مجرد مصادفة، أم إشارة القدر لسوء طالع هذا العرس؟

أُقلِّبُ الذكريات، ولا أصدق، أسمر اللون وشقراء، نتشاطر نفس الهمّ والهوايات ولكل منا جاذبيته الخاصة. عواطفنا تطل من عيوننا، نحسّها في كل لحظة قضيناها معًا تحت سقف واحد مدى خمسة أعوام. أول صورة لنا كانت أمام جدارية لينين، وقبل أن نفكر بطعامنا، كنا نغذي مكتبتنا بأحدث الإصدارات. نقرأ ونجادل، نغفر كل الأخطاء عدا خيانة المبادئ والرفاق، ومنه تعلمّتُ أن أقسمَ بدم الشهداء.

الغيرة خلافنا الوحيد، مجرد الشك بوجود "الشخص الثالث" كان يثير لديّنا أعلى درجات الغضب والهياج. طلبي الوحيد أن يُطلق

سراحي، إن دخلتْ غيّري حياته. وهو كان يطعمني بيديه، يجلسني على حضنه، يضمّني ويقول: "دعيني أموت قبلكِ"، وفي نومه يناديني: "أحبكِ، لا تهجريني".

***

في المقهى استقبلني النادل بابتسامة عريضة، كمن يبارك اختياري للشريك، وأشار لنا نحو الطابق العلوي. ركن خاص بالعشاق، هادئ، أنيق، خفيف الإضاءة، ومعزول عن العالم الخارجي. جلسنا، طلبنا قهوتنا، أشعلنا سجائرنا، واسترسل شريكي في الكلام... تحدّثَ وتحدّثَ، كأنه يخاطب نفسه، أو كأنه على كرسي الاعتراف، لم ينتبه لفناجين القهوة التي تأتي وتروح، لرمادي الذي ملأ المنافض وغطى الطاولة.

-بعد رحيلكِ شعرتُ باليتم، بحثت عن مخرج لألحق بكِ وفشلتُ، وكانت ظروفي تسير من السيء إلى الأسوأ، والأهل البسطاء لا يفهمون معاناتي... في تلك الفترة تعرّفتُ إلى صبية و...

-أعرف؟

-كيف؟!

-قلبي دليلي.

-أتاني صوتكِ الهادئ: "سوف أكون عندكَ بعد أسبوع". ارتبكتُ، أنتِ ذكية، وسوف تكشفيني.

***

لم أبتعد عنه بخاطري، الأمن الأردني أَبّعَدني. عام ونصف وأنا أعيش مع الهواتف والرسائل: "صورتكِ لا تفارقني بوجهك التفاحي، ببسمتكِ الحلوة، بدموعك، ملابسك، أحذيتك، كتابك المفتوح، وقهوتك الصباحية... أراكِ، أرى أطفالنا القادمين... صديقي يقول، سفركِ تركنا جميعا في فراغ... لعينيك أجمل وردة وألف قبلة... الجميع يهدونك سلامهم، وأنا أهديك نفسي".

صوره تطوقني في البيت، طيفه يتبعني إلى كل مكان، وأتقوّقع وحدي في فراشي آخر الليل. أشتاقُ وأشتاق وأشتاق، ولا أدري أين أهرب من جحيمي... وما إن سمعتُ خبر العفو العام والتحولات الديمقراطية في الأردن، حتى طرّتُ إليه.

لم يكن هو، أحسست ذلك منذ قُبّلة المطار. يغيب طويلًا، وحين يأتي جسده معي وروحه في مكان آخر. يتهرّب من وجودنا وحيدين، يضع أهله بيننا: "علينا أن نجلس معهم، نراعيهم، نستقبل ضيوفهم"، "متى كنتَ تأبه للتقاليد؟" يهز لي رأسه، ولا أفهم شيئًا، يتألم بصمت، أسأله عن السبب، يجيب باقتضاب: الظروف، وفاة أبي.

وددتُ أن أنهي إقامتي في بلغاريا، وأعيش معه، المناخ السياسي الجديد يساعدني أن أمارس مهنتي، وأوفر لكليّنا حياة متواضعة ريثما ينهي خدمة العلم. رفض بشدة، يريدني أن أكمل الدكتوراه، رجولته لا تقبل أن أصرف عليه، ولا يرغب بعد أن ينهي خدمته،

أن يبقى يومًا واحدًا في الأردن. انكمشّتُ على نفسي، وبعد شهر رحلت. هذه المرة كان هو من نفاني، أوصلني بسيارته إلى المطار، وكانت المسافات على أطراف الطريق قاحلة والسماء تبكي.

"يا قنديل عشقي، أشتم روائح الأثر البعيد، حين كانت الزهور والطيور ترتديني، الليل صدركِ، ومنديلكِ يمسحني بالحب، يدخل قلبي كرائحة الزنبق البري... أراكِ في ضحكات الأطفال قديسًا، أرتمي في معبده وأموت"، كتبَ لي بعد عودتي الخائبة، ثم تتالت رسائله ومكالماته وهداياه، هدّأتْ قليلًا كبريائي، ولم تنزع الشك من قلبي ولا الحزن عن حياتي، وفي الموعد المرتقب لقدومه، انقطع عني.

كانت حرب الخليج الأولى، ومتُ قلقًا أن يكون على جبهة القتال، بعثتُ له برسائل كثيرة، ظلتْ من دون جواب، هاتفته مرارًا، وكان يردّ عليَّ أخوه: "اطمئني، مشغول بإنهاء أوراق خدمة الجيش وترتيب أوضاعه". لم أطمئن، حسّي كان ينذرني، ثمة كارثة في انتظاري.

***

–لم تكن وحدها، كنّ مجموعة من الحسناوات، حتى تعبتُ، وباتت عودتي إليكِ مستحيلة، كيف لخطاياي أن تلمس طهركِ؟. عليَّ أن أبدأ من جديد....

–لماذا لم تطلّقني؟!

– طلقّتكِ، وأعدتكِ إلى ذمتي بعد يوم.

–مجنون؟

–الجنون الحقيقي، كان يوم زفافي... استيقظتُ متوترًا، حزينًا، همتُ في الشوارع، ثملت في الخمارات، اختبأت في منزل صديقي ونمت. في الساعة الثامنة مساء بدأ المدعوون يتوافدون إلى حفلة العرس، ولم يجدوا العريس. قلق أهلي، وراحوا يبحثون عني، عثروا عليَّ طليق اللحية، متورّم العينين، ألبسوني بدلتي على عجل، واقتادوني إلى الصالة.

***

أتمشّى مع صديقتي في شوارع صوفيا والأسى يطبع نظراتي، تغيّرت الأماكن من حولي، هوت النجمة الحمراء باحتفال بهيج، تحوّل ضريح مؤسس الحزب والدولة إلى مكبّ للقمامة، والشباب يتساءلون: أين يلقون جثمانه المحنّط، وكيف يحطّمون تماثيل لينين؟. الشيوعيون سُرحوا من وظائفهم، المعامل توقفتْ عن الإنتاج، تضخم وغلاء، نقص كبير في المواد الغذائية، حوادث إجرام وعنصرية... قلتُ لصديقتي: وضع البلد مريب، هذه ليست ديمقراطية؟! قالت: اهتمي بشؤونك الخاصة...

–طلبني أحدهم للزواج.

–جرِّبي حظكِ.

–وماذا أفعل بزوجي؟.

–انسيه.

–لماذا؟

–تزوَّجَ.

مادت الأرض تحتي، غابت الألوان، انشطر قلبي، ومضيتُ أدق الطرقات بقدمين ساخطتين. شهر كامل لم أعرف الهدوء، لم أقرب الطعام، أنام بعين واحدة، وعرقي يغطيني... وحين هدأتْ ثورتي، نظرتُ في المرآة، كان وجهي مثل الأموات، والشعر الأبيض يملأ مقدمة رأسي. اغتسلتُ، أكلتُ، نمتُ طويلًا، وفي الصباح كتبتُ له: أتمنى لكَ أسعد زواج، أرسلْ لي ورقة الطلاق.

"لن أطلقكِ" هتفَ لي وبكى، لم أشعر بالاستياء، شعرتُ بالشوق. بعد شهور هتف جازمًا سيعود، غفرتُ، وأشرق وجهي، عادتْ ابتسامتي، وعدتُ أهتم بأناقة بيتي وملابسي، استمتع بالأغاني، أرقص، أزور أصدقائي، واعتقد الجميع أني تجاوزتُ محنتي، لم أخبر أحدًا بسري، لكن الانتظار طال واختفى فرحي.

طويتُ جرحي ولذتُ ببيتي، أكملت كتابة أطروحتي، دافعت عنها، حصلت على أرفع تقدير، استلمت شهادتي، لكني لم أذق حلاوة النجاح ولا طعم السعادة. هذه المرة الأولى التي أخرج من قاعة الامتحان، ولا أجده ينتظرني، أرفع له أصابعي بإشارة النصر، وأركض نحوه، يأخذني بين ذراعيه: "مبروك يا عمري".

سنواتي معه تتحرك أمامي بكل أحداثها وناسها، ابتساماتها ودموعها، أجّمعها مع أكداس الرسائل والصور، وأقفل عليها حقيبة الوداع. سنواتي معه هي قلبي، أتركه ورائي، وأمضي وأنا أرثي وحدتي.

***

–هل تغفرين لي، وتعيديني إلى روحي؟.

زفرتُ طويلًا، وسألته، لو كان مكاني، ماذا يقول؟ أطرقَ، ورجاني أن أفكر حتى الغد، حاسبَ النادل، وخرجنا. فاجأنا المساء، مشينا صامتين، كلانا متعب وحزين، سألته: عندك أطفال، أجابني مربكًا: عمر بنتي ستة شهور، قلتُ: حقّ الصغيرة أن تكبر بين أمها وأبيها، قال: لا تشعري بعقدة الذنب يكفيكِ ندوب، عمّان أصبحت بيروت الثانية، سوف أستأجر لك شقة، وسوف تعملين في الجامعة أو الإعلام.

–اسمي على الحدود الأردنية.

–لا تقلقي، سأرتبُ كل شيء.

***

بانتهاء دراستنا الجامعية، انتهت إقامتنا في بلغاريا، وبات علينا أن نفكر أين وكيف نبدأ حياتنا المهنية؟ الواجب الوطني يقتضي عودته إلى الأردن، واعترضتُ، الجبهة الشعبية محظورة، سوف يُحتجز جواز سفره، يضايقه الأمن، تنغلق أبواب العمل والحياة في وجهيّنا، ويُسحب إلى خدمة الجيش، الأفضل أن نختار مكانًا آخرًا،

في الخليج لديه الكثير من الأقارب وأبي في تونس. أجابني جازمًا: لا تقلقي، والدي تاجر ميسور، سوف أعمل عنده ريثما تنتهي مشكلاتي مع الأمن والجيش، وسوف نسكن الشقة التي بناها لنا إلى أن نصبح قادريّن على الاستقلال بذواتنا.

سافر وتبعته بعد شهريّن، كان الأمن بانتظاري في المطار، فتّشوني، احتجزوني في غرفة صغيرة، سألوني عن سبب زيارتي، وبعد ساعتين أعطوني ورقة لمراجعة المخابرات. كانت مفاجأتي كبيرة، لم أكن أتوقع أن لي ملفًا مفتوحًا لديهم، وفي المبنى الشاسع الذي يمتد على مساحات جرداء، بعيدة عن مركز العاصمة، في المبنى الفزّاعة، انتقلت من طابق إلى طابق، ومن غرفة إلى أخرى، ومن محقق وسيم وهادئ، إلى محقق بشع وشرس، والأسئلة ذاتها في كل مكان ومع كل المحققين، ما هي علاقتي وعلاقة زوجي بالجبهة الشعبية؟ من أعرف من أعضائها؟ وجوابي كان لا علاقة لي، ولا أعرف أحدًا. تكرر استدعائي، وكرّرتُ النفي... لم يعجبهم عدم تعاوني، وصدر القرار بترحيلي من الأرّدن خلال شهرين، ومنعي من الدخول ثانية.

الحياة في بناية العائلة أشبه بالإقطاعية، بناء كبير من خمسة أدوار في الضواحي البعيدة، الدور الأرضي للأب والأم، والباقي لأسر الذكور من الأولاد. الشقق مفروشة بأفخر الأثاث، لكن القطع مهّملة وموزعة كيفما اتفق، وهم لا يستخدمونها، يفرشون

الأرض بالسجاد والبسط، يجلسون ويأكلون. بحوزتهم دكاكين وبيوت وأراض زراعية، لكن الملكية مشاع والأب يتحكم بالموارد والمردود، يعطي المطيع ويمنع عن العاقّ. يستيقظ الجميع مع آذان الفجر، يصلّون، يفطرون، يذهب الرجال مع الأب إلى العمل، تنزل الزوجات إلى الأم، ينظفّن يغسلّن، يطهين، يجلين حتى يعود الأزواج في المساء، يأكل الجميع، يتحدثون عن يومهم، وعند موعد النوم يغادر كل إلى بيته.

سكنتُ الطابق الأخير، وأُعجب الأهل بطبعي الهادئ وتعففي، لكن سلوكي لم يعجب الأب، امرأة ترتدي الجينز وتدخن، تخرج من دون إذن وتخالط الغرباء، لا تفكر بالإنجاب ومطلوبة للأمن؟! استردّ مفاتيح شقتنا، قطع المصروف عنا، أخفى جواز سفري، ووضعنا تحت المراقبة. كنت بين نارين، قلبي وعقلي، أحاول تفهم البيئة الجديدة ومراعاة تقاليدها قدر استطاعتي، لكن كان من الصعب عليّ اعتياد حياة باهتة تعوزها أبسط الخصوصيات. شعر حبيبي أنه خذلني، وشجعني أن أرجع إلى بلغاريا، وأستعيد منحة الدكتوراه التي تركتها لأجله.

***

شارفت الساعة على التاسعة مساء ونحن نمشي، وصلنا إلى "باب توما"، تعبنا من الجوع والبرد، ولم نتعب من الكلام. دخلنا مطعم "أليسار" أوقد الشموع، فرش المائدة بألذ المقبلات والمأكولات، طلب

زجاجة ويسكي، رفع نخبي وشربنا. الكحول يصّعد رأسي، ينفضُ عن أحاسيسي الصدأ، أتأملُ شعره الناعم، جبينه العالي، عينيّه الوديعتيّن، كتفيّه العريضيّن، صدره... كم اشتقت إليه؟.

خرجنا من المطعم ثمليّن، وبدا ليل دمشق دافئًا تحت ضوء القمر. دسسّتُ يدي بجيّبه كعادتي، وقلت: موافقة، لن انتظر الغد. وصلنا بيتي، صعدنا السلالم بخفة لصيّن، فتحتُ بابي، دفعته إلى الداخل، رميتُ رأسي على كتفيه، أشم جسده وأبكي، رفع وجهي بين يديّه، مسّح دموعي بشفتيّه، وراحتْ ملابسنا تسقط قطعة، قطعة على الأرض... نفس الرغبة، نفس الحمّى، كأنها المرة الأولى. أشعلتُ سيجارتي وعببّتُ، كم كانت تنقصني الحياة؟.

–تأخر الوقت، سأذهب، نلتقي غدًا في الأجنحة.

–أين تبيت؟.

–لا تقلقي.

غادر، ووجدتني أغط بأعمق نوم... وكان صباحي هادئًا، قهوتي لذيذة، اغتسلتُ، ارتديت أحلى ما عندي، وحين خرجت من منزلي، كنت أبدو كأني أطأ حرم الجامعة للتو. في المقهى انتظرته ثلاث ساعات، لم يأتِ، انشغل بالي، أظلم العالم في عينيَّ، لا أعرف هاتفه ولا عنوانه في دمشق... مضى أكثر من شهرين ولم يتصل، ثم أبرق إليَّ: "استأجرتُ لكِ بيتًا، ووجدتُ لك عملًا في الجامعة، انتظركِ.

حزمّتُ حقيبتي، حجزّتُ مقعدي في البولمان، وانطلقتُ إلى عمّان. منعني الأمن الأردني من دخول الحدود، وعدّتُ أدراجي.

لن أُشفى منه، ولن يتركني وفي صدره نفس، لكني بعد اليوم سوف أخرج من سجني وأبدأ حياتي. وكنت انتقلتُ للعيش في اللاذقية، حين استسّلمَ لرجائي وحمل لي ورقة الطلاق بعد عام. أمسكتُ ورقتي، قرأتها، قبلّته، وضحكت. صحبّتُه إلى شاطئ البحر، جعلتُ يومنا يرتدي أحلى لحظات العمر، وحين افترقنا قال مستغربًا: أنتِ أول امرأة عربية تحتفل بطلاقها.

في الرابعة والثلاثين استعدّتُ حريتي، لكني احتجتُ إلى سنة أخرى حتى نهضت. عدّتُ إلى دمشق، سكنتُ في جرمانا، وبدأت أشق دربي في الصحافة، لم أرسل له أيًا من عناويني الجديدة، ولم يعد بيننا معارف وأصدقاء مشتركين، حتى يستدلَ على مكاني، وللوهلة الأولى اعتقدتُ أني طويتُ حكايتي معه.

عاد وعثر عليَّ بعد ثلاثة أعوام من طلاقنا، قرأ مقالتي في مجلة "الهدف" الفلسطينية، قدِمَ إلى سوريا، زار مقرّ المجلة، وطلب رقم هاتفي. عدّنا نلتقي مرة أو مرتين في العام، يجلب لي الهدايا، يدسّ النقود خلسة في حقيبتي، وفي عيدي الأربعين أهداني أول جوّال حملته.

نتواعد في مكان عام نزولًا عند رغبتي، وفي كل مرة يتوب ويعدني أن يهبني مستقبله وأجمل الأطفال، وأنا أصغي ولا أعترض. بعد عشر سنوات انفجرّتُ في وجهه أصيح: "لا أريد أن أراكَ"، وفي

الحقيقة كنتُ لا أريده أن يراني وأنا أشيخ. بعدها لم نلتقِ، ودخلتُ يأسي امرأة وحيدة أضاعتْ كل فرص النجاة، ولم تتجب الطفل الذي يشبهها.

دمشق (1993–2006)

عاش معارضًا ومات مرتيّن

لم يكن كاتبًا معروفًا مثل أخوته: سامي، علي، إنعام وعاصم، وهب نفسه للسياسة، وهي لم تجلب له الشهرة أو المجد. أهدته الفقر، أدخلته السجون، رمته في المنافي، وعرَّضته لحملات تشهير وتعتيم واسعة مثله مثل كل معارضيِّ نظام الأسد، وقد لا يعرفه اليوم غير من بقي حيًا من مجايليه ومعاصريه الساسة السوريين أو الفلسطينيين. وحين فكرتُ باستحضار سيرته على أوراقي، فتشتُ عن معلومات تخصه على محركات البحث، وفي المراجع التي تؤرخ حياة سوريا السياسية والنقابية، لم أعثر على ما يستحق الذكر، وسنواتي بقربه كانت قليلة، لا تكفي لملء ندوب الذاكرة.

كيف يغيب اسمه، وهو الذي قضى حياته في قلب الحدث والخطر، مشغولًا بالنضال السّري والعلني، من أجل قضية لم يُحسم أمرها بعد...؟! ولماذا حين كان على قيد الحياة، كان جميع من التقيتهم من رجالات السياسة والفكر والثقافة، يتحدثون عنه بالود والتقدير؟ هل كانوا يتملَّقونني، ما حاجتهم إلى ذلك؟! أين ضاع دفتر مذكراته عن حراكه النقابي، وتأسيس الاتحاد العام لنقابات العمال في سوريا أواسط ستينات القرن الماضي؟! هل يُعقل أن تذهب حياته هدرًا على هذا القدر من العبث؟ ما سر أبي خالد الجندي؟ سأكتبُ ما عرفته منه وعنه، ويقيني أني أفتح حلقة من

حلقات التاريخ المغيَّب، الذي تداوله السوريون شفاهًا بمنتهى السّرية والحذر.

أتخيَّلهُ ببشرته الحنطية، عينيّه الخضر النديتيّن كأنهما على وشك البكاء، خديّه الممتلئيّن الأحمريّن، شاربه الطويل المعقوف إلى الأعلى، قامته الطويلة الممّشوقة. صوره في شبابه تشبه ممثليّ هوليود، وحين تقدَّم به العمر لم يفقد جاذبيته، وأجزم أن ما من امرأة نظر إلى عينيّها، لم تقع أسيرة عينيه. كان ودودًا وسخيًا مع حواء، يعاملها بدماثة واحترام، يطريها بعبارات ناعمة لن تسمعها من الآخرين، وطوال حياتي معه كنتُ شاهدة على نساء عشقّنه، وحاولّن الإيقاع به، منهنّ من كانت بعمري أو أصغر، ولا أبالغ إن قلت، معظم صديقاتي كنّ واقعات في هواه. وسحره الفطري على النساء أصابه بأكثر من مقتل في سنوات حياته التي لم تتعدَّ السابعة والستين.

أَذكرهُ مفعمًا بالطاقة، متحدث لبق، واسع الإطلاع، حاذق الذكاء، خصب الخيال، حاضر البديهة، ابتسامته لا تفارق وجهه إلاّ عند المحن العامة والهزائم الكبرى، عدا ذلك لن تراه مقطِّبًا، ولن تسمعه يشكو، إن مرض أو ضاقت به الدنيا، سوف يتعالى على مُصابه باقتباس عبارة أدبية أو فلسفية، بيت شعر، أو قول مأثور، للتعبير عن ألمه: "أكثر من القرد ما مسخ الله"، "إن لم أحترق أنا، وتحترق أنت، كيف نخرج من الظلمات إلى النور؟"... وضحكته الهادرة يميّزها أصدقاؤه من بعيد، ويأتون إليه مسلّمين "أبو سليمان، عرفناك

من ضحكتك"، وأبو سليمان لقب لازمه منذ صغره، تيمنًا بلقب خالد بن الوليد، مع أن أبي أطلق على ابنه وأخي اسم شاعره المفضل طُرفة بن العبد، الذي كان يحب من أبياته: "أنازلُ خيّلا من فوارسها الدهر/ وحيدًا وما قولي كذا ومعي الصبر".

طقوس يومه تبدأ بشرب الماء، ثم المشي لثلث ساعة في الهواء الطلق، بعدها يشربُ قهوته ويدخن، يتابع الأخبار باهتمام من عدة مصادر، يشاركنا أعباء المنزل، قيّلولة الظهيرة لديه مقدّسة، ينهض منها على كأس المتّة، ومن ثمة يأتي دور المقهى. كتابه إلى جانبه طوال النهار، ودفتر يومياته قبل النوم، يجلس وراء مكتبه، يدوِّن الأحداث الهامة، خواطره، أشعاره، غرامياته، يعدّ التقارير والمقالات السياسية، وإلى لغته العربية يجيد الإنكليزية والفرنسية والألمانية، ومع صحبته الممتعة سوف ترتاد أحلى الأماكن، تلتقي أهم الشخصيات، تغتني معارفكَ، ويضج عقلكَ بعلامات الاستفهام.

يوم العشرين من تشرين الثاني عام 1997، حين علمتُ بوفاته، شققّتُ قميصي وصرخت: لا... كان يوما فارقًا في ذاكرة انكساراتي، فقدّتُ من كان يضمني إلى بعضي. أعيدُ رسم ملامحه، وأشعر بشوق حارق إليه، أودُّ لو أزوره، أضع على قبره القرنفل الأحمر الذي يحب، أمرّر يدي على شاهدته، أقرأ حروفه وتمتماتي، أجلس بجواره، أحدثه عن بؤسي وثورتنا اليتيمة، وأبكي... أفعل ما يفعله الجميع حين يفقدون أحبتهم، لكني لا أعرف أين رفاته، مات بذبحته القلبية بعيدًا عني في غزّة، أُقيمتْ له جنازة رسمية مهيبة، ودُفن في

مقبرة الشهداء، المقبرة التي ما لبثتْ أن قُصفتْ ودُمرتْ. مات أبي مرتين، فقدَ مثواه الأخير، مثلما فقدَ مسقط رأسه، "السَّلمية" التي كوتّه بالحنين.

****

مسقط أبي، معقل العُصاة والخارجين عن المألوف... بلدة تتوسط الخارطة السورية بين حمص وعلى بعد ثلاثين كيلومترًا إلى شرق حماة، تتبسط بين الهضاب والجبال، منَ الجنوبِ هضبة السطحيات التي تمتد إلى جبالِ الشومرية، ومن الشرق جبال البلّعاس، ومن الشمال جبال العلا، ومن الغرب المرتفعات الكلسية التي تشكِّل شبه حاجزٍ يفصلها عن حوض العاصي، وبهذا الموقع الفاصل بين تخوم البادية والحضر، المعزول والمفتوح في الآن ذاته، بنتّْ السَّلمية تاريخها الخاص، وجذبت إليها قوافل التجار والمتمردين عبر العصور.

معلومات "غوغول" تفيد أن تاريخ السَّلمية يعود إلى العصر الحجري، كانت مدينة عامرة في العهد السومري (3000–2400 ق.م)، وفي العهد الأموري (2400–2000 ق.م)، والعهد الآرامي، وعُرفت باسم "كور الزهور". ازدهرت في الحقبة اليونانية–السلوقية، ولطيب مناخها اختارها أنطيوخوس الثالث منتجعًا استشفائيًا لعلاج ابنته سلاميناس المصابة بالسلّ، وأطلق اسمها على المدينة بعد وفاتها. تألقت في العهد الروماني، وفي زمن الامبراطورية البيزنطية أصبحت مقرًا لأبرشية مسيحية تتبعها حوالي ستين كنيسة، وتحوَّلت

إلى واحدة من مدن السلام السبع آنذاك، من دخلها مجرمًا كان أم متمردًا، يصبح آمنًا من ملاحقة أي كان. في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، صارت السَّلمية مقر الدعوة الإسماعيلية الباطنية، منها خرج عبيد الله المهدي إلى تونس وأصبح الخليفة الأول للدولة الفاطمية، ومن المهدية أُرسل المعزّ لدين الله الفاطمي (جوهر الصقلي) ليبني مدينة القاهرة "المحروسة".

قام القرامطة بتدمير السَّلمية أواخر القرن الثالث الهجري، وأجهز عليها نهائيًا غزو تيمورلنك لسوريا عام 803 هـ. ثم أُعيد إعمارها في منتصف عام 1848، حين بدأ الإسماعيليون اللاجئون إلى الجبال الغربية وعكار بالعودة إلى مدينة أجدادهم، بعد أن أصدر السلطان العثماني عبد المجيد فرمانًا بالسماح لهم بسكناها من جديد لصد هجمات البدو على مدينتيّ حمص وحماه، وأطلق عليها اسم "مجيد آباد"، وفي عام 1900 أُعيد لها اسمها التاريخي، ومنذ مطالع القرن العشرين كَفَل صندوق الطائفة الإسماعيلية التعليم والمداوة في السَّلمية، ما أسهم في انتشار مدارسها قبل انتشار التعليم الرسمي بعقود، وكانت المدرسة الزراعية التي افتُتحت عام 1911 أول مدرسة ابتدائية زراعية في بلاد الشام، وكان شرط التعليم في البلدة حينذاك المساواة بين الذكور والإناث، وتفضيل البنت على الولد إذا كان الأهل لا يستطيعون تعليم سوى واحد منهما، حسب وصية الإمام (سلطان محمد) جد الإمام الحالي (كريم خان).

مفارقة السَّلمية الساخرة، أنها أسهمت إلى حد كبير في تأسيس حزب البعث وانتشاره منذ أواخر أربعينيات القرن العشرين، لكنها في عهده تعرضت إلى أكبر قدر من الإهمال والتهميش، حتى أنك لن تلحظ اليوم من معالمها العريقة غير الفقر الذي يسكنها، والعصيان الذي يُحرِّك عقول ساكنيها، وعلى حد تعبير عمي سامي في روايته "سليمان": "أفضل لك أيها القارئ إذا وصل بك الترحال إلى مجيد آباد، أن تخلع نعليّك، لا لأنك بالوادي المقدّس طوى، وإنما كي لا يستهجن حذاءك الحفاة، لا أريد أن أقول كل الناس في مدينتنا حفاة، وإنما شبه حفاة، يلبسون الخف صيفًا وشتاء وقد اهترأ بعضه، لا لأنهم يفضلونه مهترئًا، وإنما لكي يبرزوا سيماء قدرهم".

لم يبقَ من جمال المدينة الموصوف في كتب التاريخ غير القليل من الأوابد والحكايات: الحمَّام الروماني الأثري، وحطام الأقنية الرومانية التي كان يصل عددها إلى ثلاثمئة وستين لكل واحدة حكايتها، أشهرها "قناة العاشق" التي بناها أحد أمراء المنطقة قبل أكثر من ألفي عام، على طول مئة وخمسين كلم عبر السهول والجبال، كي تشرب مياه سلمية العذبة حبيبته ابنة أمير مملكة أفاميا. ولا تزال بقايا سور القلعة التي كانت سراديبها مأوى المفكرين والمتصوّفة الفارين من عسس العباسيين. وجدران مقام "الإمام اسماعيل" البازلتية الضخمة في وسط البلدة، تضم بقايا معبد زيوس وجوبتير. أطلال مدينة مهملة، محرومة ومضّهطَدة، أنجبت أهم كتَّاب سوريا، وعليها ينطبق وصف ابنها محمد الماغوط: "يحدّها

من الشمال الرعب/ ومن الجنوب الحزن/ ومن الشرق الغبار/ ومن الغرب ... الأطلال والغربان/ فصولها متقابلة أبدًا/ كعيون حزينة في قطار".

****

في تلك البيئة الغرائبية وُلد أبي عام 1930، من أب ثائر وأم سليلة الأمراء. حتى شبابي لم أعرف شيئًا عن جدي محمد، توفي قبل أن أُولد. والدي، عمتي وأعمامي لا يتحدثون عنه، وإن استفّسرتُ من أحدهم كيف كان؟ يكتفون بذكر قسوته عليهم. حاولتُ مرة في حوار صحفي أن استدرج عمي علي إلى الحديث عن والده، قال جملتيّن وصمت: "كان يخيّل لنا، أن أبي هو سبب حرماننا من طفولتنا، وبهذا كنا نلومه وحده، فلولاه كنا نعمنا بالمرح على البيادر المطلقة، والنوم أنّى نشاء، تحت النجوم أو فوقها"، "حين كنا أطفالًا لم نكن نحس إلا بهذا الجانب من شخصيته (قسوته)، فيما بعد اكتشفنا أنه شخصية مؤثرة سياسيًا واجتماعيًا".

خارج إطار العائلة، كان جدي الأشقر، جميل الطلّة، قوي الشكيمة، كما يصفونه، كان شخصًا متعلِّمًا ومعّتبرًا، مكتبته زاهرة بنفائس المخطوطات، مضافته عامرة، يهابه الناس ويحترمونه، في شبابه ثار على العثمانيين، وتعرَّض للنفي وضنك العيش، وتحت الانتداب الفرنسي قاد في السَّلمية حملة دينية واسعة النطاق، ذات طابع سياسي معارض، لتسّنين الطائفة الإسماعيلية التي كانت

يومها موالية للانتداب، على اعتبار أن الآغا خان يحمل الجنسية الفرنسية، ويعيش في فرنسا.

نجح جدي في جذب نصف أهالي البلدة إلى المذهب السُّني، والنصف الآخر ظل متمسكًا بمذهبه، أسهم بتشييد سبعة مساجد، دخل الكتلة الوطنية، وبنى اقطاعيته الكبيرة من العقارات والأراضي الزراعية، لم يوزعها على أولاده الزنادقة الملحدين، بل ظلتْ بحكم المشاع حتى اليوم. وبعد خروج أختي غرناطة من المعتقل مع من أُفرج عنهم من "حزب العمل الشيوعي"، أخبرتني أن الأخوات المسلمات كنّ يدللّنها ويعاملّنها بود خاص، كرمى لجدي الذي يعرفّن سيرته جيدًا، ويقدرّنَه عاليًا، قلتُ: لسوريا أكثر من تاريخ طواه النسيان.

****

على خلاف جدّي كانت جدَّتي "حنانا دائمًا، نتوسّده أنّى نشاء، ونجرؤ في حضرتها على القول" وصفها عمي علي. جدَّتي فاطمة (أم سامي) أعرفها جيدًا، كانت تزورنا في اللاذقية طوال فترة سجن والدي، تحمل لنا أكياس العدس والبرغل، الزيتون الأخضر، خبز التنور وكعك العيد، حصّتنا من غلّة الأرض والأملاك التي كانت تديرها بمفردها بعد وفاة جدي. طقوس صباحها لا أنساها، تنهض من فراشها حوالي السابعة، تشرب ملعقة كبيرة من زيت الزيتون، وبقليل منه تمسح رأسها ووجهها، تمشِّط شعرها الطويل، الأجعد، المخضب بالحناء، تضفره، تفتل سالفيّها، تضع وشاحها الحريري

الأبيض ومن فوقه عصبتها السوداء المقصَّبة، ترتدي ثوبها المطرَّز الطويل، ومكياجها الطبيعي اليومي حمى وجهها الأسمر من الغضون والتشققات، وأبقاه متوردًا رغم سنواتها التي قاربت الثمانين، وكانت تبدو لي بزيّها الغريب أقرب إلى أميرات البدو منها إلى نساء المدن والأرياف، وفي حقيقة الأمر هي تنتمي إلى سلالة أمراء السَّلمية، ومنها اشتُقت كنيتها المير.

أحببتها كثيرًا، كانت دائمًا قادرة على إدهاشي، امرأة جريئة، رقيقة الملامح، متوسطة الطول، جسدها أقرب إلى البدانة، تمشي ببطء شديد بمساعدة عكَّازها، ولا تحني ظهرها. أخبرتني: كانت تجلس على الأرض كعادتها، وقت جاءها نبأ اعتقال جميع أولادها دفعة واحدة، حاولتْ النهوض ولم تقدر، من يومها لم تعد ساقاها تحملانها.

لم تكن تشكو وتتعبد، تسبِّح وتذكر الله مثل باقي المُسنات، كانت تمازحني وتلاعبني "الباصرة"، تسرد ذكريات شبابها، وتقهقه مثل الأطفال، حدثتني: حين كانت تعتلي صهوة الخيل لا أحد يسبقها. علَّمت نفسها القراءة، حفظت السِّير الشعبية عن ظهر قلب، فتحت الكتب، وقارنت بين ذاكرتها الشفوية وشكل الكلام المدوَّن، حتى التقطت كيف تُكتب الحروف والكلمات. كانت تحكي لي سيرة الزير سالم وبني هلال قبل النوم، تقطع، تتنهد وتقول "يارب البيت فيك احتميت" ثم تغلق عينيها وتنام، وإن مرضتُ، كانتْ لديها تمائمها

ورقيّاتها السحرية التي لم أعد أذكرها، تقرأها عليّ وهي تمسّد شعري بيدها الحنون، وكانت تنجح كل مرة في إبعاد الشر عني.

بعد أن خرج والدي من السجن، لم تعد جدتي تأتينا، صرتُ أزورها معه في دارها الواسع ببابيّن خشبييّن، يمتد على ألف من الأمتار المربعة، غرفه ومنافعه متلاصقة في ثلاثة أضلاع مستطيل والسور الطويل رابعها، ترسم فسحة السماء الرحبة، المليئة بالأشجار والزهور، وشجرة التوت الكبيرة تحّرس غرفة ربة البيت، ينفتح بابها على العتبة وفي الصدر صورة جدي بالأبيض والأسود معلَّقة على الجدار، تحتها سرير فاطمة الحديدي العريض، وإلى جوارها مدفأة الحطب الصغيرة والمذياع القديم، لجلستها الفرشة والبساط وللضيوف المقاعد، ولم تكن أم سامي تستخدم من بيتها الكبير سوى غرفتها، ما تبقى أسكنته عائلة فلسطينية، تساعدها في إدارة شؤونها العامة والخاصة حتى يوم فارقتنا عام 1976. رحليها عن بعد آلمَ أبي كثيرًا، لم يبكها، فتح زجاجة الويسكي، وشرب نخبها حتى الصباح.

هل كان أبي الجاني أم القتيل؟

وُلد أبي في حضن الانتداب الفرنسي، ولم يكد يبلغ سنته التاسعة حتى اندلعت الحرب العالمية الثانية، ووجد بلده تحت سطوة حكومة فيشي، وفي عام 1940 سمع بأول اغتيال سياسي، أودى بحياة أحد أبرز القادة الوطنيين في سوريا يوم ذاك، د.عبد الرحمن الشهبندر، بينما كان ستالين على الضفة الأخرى من العالم، يقارع النازية، وكانت الماركسية اللينينية، تعد الشعوب المضّطَهدة بالتحرر من الاستعمار، وبالخبز والعدالة الاجتماعية.

قبل ذلك كان "الحزب الشيوعي السوري" تأسس منذ عشرينيات القرن الماضي، ثم قامت "الكتلة الوطنية"، و"الحزب السوري القومي الاجتماعي" في الثلاثينيات، وكانت تلوح في الأفق نواة طبقة اجتماعية صاعدة بعد إنشاء معمل الإسمنت في دمشق عام 1928، ومؤسسة "تراموای وكهرباء دمشق"، وازدياد حجم الاستثمار في صناعات الغزل والنسيج والكبريت وغيرها. بدأ نضال الطبقة العاملة، وتُوِّج بتأسيس "اتحاد نقابات العمال" في الثامن عشر من آذار 1938.

في تلك الآونة بدت سوريا واحدة من بقاع العالم العربي الهامة بعدد تجمُّعاتها الأهلية ومنظماتها النقابية وحراكها المطلبي. عمَّت المظاهرات البلاد مطالبة بالاستقلال وتوفير فرص العيش، وكان

لنقابات العمال وزنها ودورها في ميزان القوى والتجاذبات السياسية والعمل الجماهيري.

رفعت النقابات العمالية سلاح الاضراب والاعتصام من أجل حق الكادحين في تحديد ساعات العمل، رفع الأجور، وقف التسريح التعسفي، الإجازة مدفوعة الأجر، وتعويضات نهاية الخدمة والطبابة والسكن والنقل وحماية الأطفال، كما ساندت كل الجهود الرامية إلى حماية الاقتصاد الوطني وتحقيق الاستقلال، وكان صدور قانون العمل 279 بتاريخ 1946/6/11، بدل قانون "نقابات الحرف والمهن" العثماني المعمول به، كان أول المكتسبات التي انتزعها العمال بعد أقل من شهرين على خروج آخر الجنود الفرنسيين.

تقاسم أبي الفقر والظلم والمرض والنقمة على الأوضاع السائدة مع أبناء جلدته، وخرج مع زملائه من المدرسة إلى الشارع للاحتجاج مع المتظاهرين ضد الانتداب، عاصر نهاية الحرب العالمية الثانية وبناء المنظومة الاشتراكية، حمل علم الاستقلال، ذاق حلاوة النصر، وشهد ولادة أول حكومة تعددية حرة على النمط الفرنسي في بلده.

وكان من الطبيعي في مثل نشأته وبيئته، أن يتعاطف مع المستضعفين، يؤيد ستالين ويميل إلى اليسار، يحلم بالوحدة العربية وينخرط في صفوف "حزب البعث" فور تأسيسه، وهو لم ينل شهادته الثانوية بعد، سيما أن أخاه الأكبر سامي، كان من مؤسسيّ الحزب

في منطقة السَّلمية عام 1947، وبدأت حياة خالد الجندي الحزبية بإضراب شامل، دعا له البعث احتجاجًا على قيام دولة اسرائيل.

مثله مثل كل السوريين لم يهنأ والدي طويلًا بالاستقلال والحكومة الديمقراطية، جاء عام النكبة ومن بعده عام القلاقل والأحكام العرفية، وشهدت البلاد ثلاثة انقلابات عسكرية متتالية، أودت بالحياة الدستورية، بدأها اللواء حسني الزعيم بالانقلاب على حكومة شكري القوتلي في شهر آذار 1949، ثم جاء انقلاب سامي الحناوي في آب، فانقلاب أديب الشيشكلي في كانون الأول، وفي ذاك العام الدراماتيكي دخل أبي تجربته الأولى مع المعتقل السياسي، لم تكن التجربة طويلة ولا قاسية، لكنها جعلته يختبر الفرق بين الحياة الدستورية وحالة الطوارئ.

عادت الحياة النيابية، وصدر دستور عام 1950، الذي كفل الحريات العامة، ومبادئ التعددية الحزبية والمساواة بين الجنسين، وفي ذاك الحين دخل أبي كلية التاريخ في جامعة دمشق، وكانت أمي الجميلة، واحدة من القليلات اللاتي تحديْنَ سلطة المجتمع الذكوري في بيئتها المحافظة. أصرّتْ على متابعة تعليمها، دخلت فرع الرياضيات والفيزياء والكيمياء، نزعت الحجاب، وارتدت البنطال، وفي الحرم الجامعي تعارف الاثنان، ووقع كل منهما في غرام الآخر. كانا أجمل عاشقيّن وأكثر طالبيّن متفوقيّن، وكانت المناهج الدراسية حديثة وصعبة، تُدرَّس بلغتها الأجنبية الأم الفرنسية أو الإنكليزية، ولم يكن الفساد اكتسح الجامعات السورية بعد.

***

كيف حدث وقطع أبي دراسته الجامعية في سنته الأخيرة، وأصبح موظفًا في مرفأ اللاذقية، وبدأ نشاطه النقابي عام 1954؟ لست أدري، على الأرجح كان للأمر صلة بنشاطه الحزبي. هل انقطعت علاقته بأمي في تلك الآونة؟ أيضًا لا أدري، ما أعرفه جيدًا، أن نيل الشهادة الجامعية ظلَّ يؤرِّق والدي، وأنه جرَّب حظه بعد ذلك لمرتيّن متباعدتيّن، وفي المرتيّن كانت الظروف تكسر حلمه، مثلما فعلت بكل أحلامه وحياته.

سكن أبي غرفة فقيرة على سطح بناية من ثلاثة أدوار في حي الشيخ ضاهر باللاذقية، سكن مع قطته وفأره، بعد أن دربّهما على التعايش السِّلمي، وبدأ يشق دربه بين عمال المرفأ، ويبني سيرته النقابية في مرحلة هامة من تاريخ نضال الطبقة العاملة، دشّنها إنشاء مصفاة حمص لتكرير النفط عام 1955، ثم إعلان الإضراب العام والشامل في كل المطارات والمرافئ العربية أثناء العدوان الثلاثي على مصر عام 1956.

عمال سوريا قطعوا إمدادات النفط أيضًا، وأطلقوا مبادرتهم لقيام "الاتحاد الدولي لنقابات العمال العرب" الذي عقد مؤتمره التأسيسي بتاريخ الرابع والعشرين من آذار 1956 في دمشق، وبقيت العاصمة السورية مقرًا للاتحاد الدولي، لأن الحكومة آنذاك كانت تضمن له حرية عمله، وتمنح مكاتبه وأمواله والعاملين فيه الحصانة الدبلوماسية.

في تلك الفترة الساخنة أبدى أبي ذكاء ملحوظًا على مستوى التكتيك والتخطيط، ما لفت انتباه إدارة المرفأ إليه، وجعلها تنتدبه عام 1957 في منحة تخصصية إلى ألمانيا لدراسة بنية التنظيمات النقابية وآليات عملها، وفي هامبورغ قضى سنة وثلاثة أشهر، خلالها خالط الشيوعيين، الألمان والأجانب، قرأ منشوراتهم وكتبهم، حضر اجتماعاتهم، وتأثر بفكرهم لدرجة اليقين، ولدرجة أن رفاق البعث أصبحوا يلقبونه بالشيوعي المنَّدس.

ومن الطبيعي في مثل شبابه أن يفسح لنفسه متسعًا من الوقت للعلاقات العابرة مع الجميلات الألمانيات. واحدة منهنّ سوف تحتفظ بالجنين الذي زرعه أبي في رحمها، وسوف تلد بعد رحيله، وتسمي طفلها سليمان، وتبعث له برسالة إلى اللاذقية تخبره بطفله. لم تطلبْ شيئًا، وهو لم يكترث بالخبر، تابع حياته كأن العلاقة بها لم تكن، وكبر بكره في حضن زوجها الألماني.

***

بعد إنهاء دراسته عام 1958 عاد أبو سليمان للعمل في مرفأ اللاذقية بنشاط أكبر، ترشَّح للانتخابات النقابية في القائمة المعارضة لقائمة الإدارة، وفاز برئاسة "نقابة عمال النقل البحري" في سوريا، ولم يكد يفرح بمنصبه، حتى قامت دولة الوحدة بين مصر وسوريا. تم حل البرلمان السوري والأحزاب السياسية، قُيدت الصحافة، وسُرِّح أبي من منصبه، ودخل السجن للمرة الثانية بسبب موقفه المعارض لسياسات القمع.

بعد عدة شهور خرج من سجنه وفي قلبه مقت كثير لكل ما يتصل بالناصرية، عاد إلى عمله، تزوج أمي التي غدت مدرِّسة بعد تخرجها من الجامعة، وكنتُ بكره منها، ثم وُلد أخي طرفة، وبعد الانفصال عن مصر بعام حلّت الحكومة قيادة اتحاد النقابات واللجان النقابية، وحُظر على النقابيين ممارسة العمل السياسي، بموجب المرسوم التشريعي رقم 50، الصادر بتاريخ 1962/7/2. فقد أبي عمله، وفي تلك الظروف القاسية استطاع رب وربة أسرتنا الناشئة، أن يوقعا عقد عمل للتدريس في المغرب، وأسرعا بمغادرة البلد.

في الدار البيضاء قضى أبي وأمي أحلى أوقات حياتهما الزوجية، شابان في حالة عشق والبلاد خضراء وجميلة، بيت أنيق وسيارة، وظيفة محترمة تدر دخلًا عاليًا، مكنّهما من زيارة كامل أوربا الغربية أثناء العطل الصيفية، وكنت بينهما طفلة وديعة لا تعرف البكاء، بينما بقي أخي عند جدتي لأمي في حلب.

سجَّل والدي في كلية السياسة والاقتصاد، لمع في دراسته، وقبل أن يجتاز امتحانه الأخير، جاءه الأمر الحزبي بضرورة الالتحاق برفاقه البعثيين اليساريين، بعد أن نجحوا بانقلابهم على يمين البعث في الثالث والعشرين من شباط عام 1966، طلب منهم أن يمهلوه لبعض الوقت ريثما ينال شهادته، ورفضوا، كانت أُوكلت له مهمة رئاسة "الاتحاد العام لنقابات العمال" في سوريا.

تسلَّمَ منصبه في دمشق، ولم نعد نراه في البيت إلاّ قليلًا، قضايا الفقراء قضيته والعمل النقابي اختصاصه، وفي فترة وجيزة أعاد للحركة النقابية وزنها وسمعتها واستقلالها. كان ينهض أبي باكرًا، يرتدي بزّة العمال الكحلية، ويقضي جلّ يومه في مقر الاتحاد، جعله ساحة للمؤتمرات والاجتماعات، فتحه لياسر عرفات والثورة الفلسطينية، أسس "الكتائب العمالية المسلحة" للدفاع عن الكادحين أثناء التأميم في القطاعيّن الصناعي والتجاري، بنى روابط قوية مع اتحادات الدول العربية ودول المنظومة الاشتراكية، وقدَّم منحها العلاجية والدراسية للمحتاجين، حضر المؤتمرات الدولية، ألقى الخطب، وأطلق تصريحاته النارية التي كانت تسترعي انتباه زاوية "رجال خطرون" في صحيفة "نيوز تايم" الأميركية.

بات أبي الشخص الأكثر شهرة وجماهيرية من بين زملائه المسؤولين، بمن فيهم رئيس الجمهورية نور الدين الأتاسي، لكن المقام لم يطل به كثيرًا في منصبه، بعد أقل من عام ونصف على تنصيبه جاءت حرب الخامس من حزيران، استقال وطالب بالتحقيق في أسباب الهزيمة النكراء، وانقلبت حياته رأسًا على عقب، من رئيس شغل الناس وملأ الدنيا وعُرف بنزاهته وإخلاصه، إلى سجين متهم بقتل عشيقته واختلاس أموال "الاتحاد العام لنقابات العمال".

سرتْ الشائعات في كل مكان للنيّل من سمعته، قيل إنه يملك دورًا وعقارات بما نهبه من الدولة، نُسب إليه أنه سجن معارضيه في أقبية الاتحاد، وعذَّبهم بوحشية، تحدثوا عن فحشه وغرامياته، ولم

تبقَ مفسدة على الأرض لم تُلصق به. لم تنطلِ التهم والإشاعات على مؤيديه ومحبيه، أدرك الجميع أن قضيته سياسية بامتياز، فلو كان أبي من سرق وقتل بعد انسحابه من منصبه وحزبه، لماذا لم يهرب خارج البلاد بالأموال التي نهبها؟ لماذا لم يُحاكم علنًا، ويُعدم بحسب القانون السوري؟ ثم في أية زنزانة اختفى طوال العام؟ وبدأ الضغط الشعبي للكشف عن مصيره وملابسات سجنه.

وفي حقيقة الأمر كان والدي نظيف اليدين مثل أغلب رفاقه المسؤولين في ذاك الحين، على قناعة لا تُجادل أن المال والملكية الخاصة أصل الشرور. عاش بالأجرة، ولم يعرف أرصدة البنوك في حياته، كان ضد الأحكام العرفية والتعذيب، يؤمن بالنضال المطلبي والمعارك السِّلمية، أما غرامياته النسائية فقد مشت جنبًا إلى جنب مع كل محطات نضاله ومعاركه، لم يعشها في الخفاء، ولم يخجل منها في يوم من الأيام، كان يعتبرها شأنه الخاص لا دخل لأحد فيه غير أمي.

***

بعد إضرابه المفتوح عن الطعام، وتدهور وضعه الصحي في زنزانته المنّفردة، أُحيل النقابي السابق خالد الجندي إلى المحكمة الجنائية للنظر بالتهم الموجَّهة ضده، وبعد عام برّأه القضاء من جُرم الاختلاس، أما قضية القتل العمد فقد استغرق النظر فيها سبع سنين، وراحت المعلومات تتسرب سرًا من جلسات القاعة المغلقة.

قبيل اعتقاله بشهور قليلة جمعته المصادفة بامرأة ثرية من الصعب مقاومة جمالها وأنوثتها -كما وصفها لي مرة- تكررت المصادفات واللقاءات، أغوَته ودخلها، رافقته في سهراته، ومن خلاله تعرَّفتْ إلى أهم وجوه البلد، طلبتْ منه الأمان وكشفتْ سِرها، هي عميلة لعدة جهات أُرسلتْ للإيقاع به، ولم تعد قادرة على أذيته بعد أن وقعتْ في هواه، وأبدتْ رغبتها بالاعتراف بكل ما تعرفه، لقاء ضمان خروجها سالمة من البلد. أبلغ أبي عنها دوائر الأمن، وتولى التحقيق معها عبد الكريم ناصيف، الذي دخل الأدب بعد خروجه من الأمن، وكتب قصتها في روايته "الحلقة المفرغة" التي صدرت عام 1984.

قرأتُ الرواية أواخر التسعينات، وعلى ما أذكر أن سيرة تلك المرأة كانت مأساوية. أجبرها والدها على الزواج من سعودي متزوج وله أطفال، ذاقتْ الأمرّين، قبل أن تستطع الهروب من الرياض والعودة إلى دمشق، طردها أهلها، عانت وجاعت، ثم انزلقت إلى الدعارة والتجسس، ونعمتْ بالثراء والقوة قبل أن تُصاب بالغرام للمرة الأولى، وتعترف بما لديها.

هجرها أبي، وانشغل بالحرب، وبعد النكسة غادر دمشق إلى اللاذقية، استأجر شقة في بناية صديقه، وانتظَرَنا ريثما نلتحق به بعد انتهاء العام الدراسي. كان المنزل واسعًا، مرفوعًا على أعمدة في بناية من دور واحد وشقتيّن متقابلتيّن، تطل على تقاطع طرق

وأرصفة عريضة، مغروسة بأشجار البنفسج، في "المشروع الأول"، أحدث وأجمل أحياء اللاذقية حينها.

قبل أن ننتقل إلى منزلنا الجديد، اهتدت إليه عشيقة أبي، وفاجأته بزيارتها. شربا، تناولا الغداء، واعترفت بعدم قدرتها على العيش من دونه، أجابها: عندي زوجة وأطفال، هددته بالانتحار، اعتذر منها، وانسحب إلى غرفة نومه لأخذ القيلولة. لم يكد يغفو، حتى سمع صرختها وطلق الرصاص، نهض راكضًا من فراشه إلى غرفة الجلوس، رآها ممددة على الأرض، المسدس إلى جانبها، خلفها باب الشرفة مفتوح، وبين يديّه لفظتْ نفسها الأخير.

مذعورًا، من دون وعيه، ركض إلى شقة جاره، كي يتصل بالشرطة، ويبلغ عن الجريمة. هدّأ الجار من روّعه، ونصحه بالتريّث قليلًا، دخلَ شقتنا، سحب الجثة وغاب، وأُلقي القبض على أبي.

هل انتحرتْ بالفعل، أم قُتلتْ، ومن القاتل؟ أسئلة لم تستطع المحاكمة الفضيحة أن تجيب عنها. زُوِّر تقرير الطب الشرعي، أُحرقتْ جثة القتيلة بالأسيد، ولم يبقَ من ملامحها غير سلسلة ذهبية، تحمل صورة أبي، ورُميت في السَّلمية داخل أراضي جدي، كل المحامين الذين تبرَّعوا للدفاع، تراجعوا بعد الجلسة الأولى، كل الشهود غيَّروا أقوالهم، أُتلفتْ الأدلة، اختفتْ ملفات التحقيق، وتم تصفية الشاهد الوحيد على عدم تورط أبي بالجريمة، جارنا، شهدّتُ نعشه قادمًا من بيروت.

كابوس يقض مضجع السوريين

لم تصدقْ أمي أن أبي قادر على القتل، لكن فضيحة عشيقته أدمتْ قلبها، واعتبرتْ دخوله السجن عقاب السماء على خيانته لها. تعالتْ على جرحها، أغرقتْ نفسها بالتدريس لتأمين معيشتنا، وكانت تخرجُ باكرًا من المنزل، وحين تعود في المساء، تجلس أغلب الوقت وحيدة، واجمة، تُدخِّن، وإن تكلمتْ تتحدث عن الخيانة والانتقام. اكتفتْ بفرش القليل من أثاثنا الأنيق، وتركتْ الباقي في الصناديق، ولم تعد تبالي بمظهرها.

من دون كلام تقاسمتُ معها أعباء الحياة، هي المسؤولة عن إعالتنا والطبخ، وأنا أهتم بأخي وأختي الأصغر مني، أكنس وأمسح، أصعد الكرسي الصغير حتى أصل المجلى وأغسل الصحون. فقدتُ طفولتي، وصرتُ أم الجميع في أسرة يخيِّم عليها الحزن والقلق. متعي المتواضعة أقطفها حين يزورنا أحد الأقارب، أو أزور أهل أمي في معرَّة النعمان أثناء عطلتي الصيفية.

"آل الجندي" عائلة كبيرة، تنتشر في أغلب المناطق السورية، وإليها تنتسب أمي. أصولها تنحدر من معرَّة النعّمان، وقبل أن تتعرف بأبي في الجامعة، لم تكن تعرف شيئًا عن أنسابها البعيدين في السَّلمية، وبعد أن عرفتهم، لم تكن على علاقة جيدة بهم. بيئة أمي من السُنّة المحافظين، الفصل كامل بين رجالها المتزمتين ونساءها المحجَّبات، والتكافل الاجتماعي واجب بين الأهالي. كرماء، بيوتهم

نظيفة، عامرة بالنباتات وأُصُص الفل والياسمين، مبنية من الحجر بطابقين على الطراز القديم، الأرضي للجلوس والعلوي للنوم. ولآل الجندي حارة مغلقة عليهم، وعمّ أمي، مفتي المعرَّة، يبسط سلطته على الجميع. كنت أصل أول الحارة بعربة يجرها حصان، يصحبني ابن عم أمي، يأتيني الأطفال مُرحّبين، وتقف النسوة عند الأبواب لاستقبالي، أنزل من العربة ومن باب لباب أُسلِّم وأعانق الجميع، كانت واحدة من لحظات الفرح النادرة، تغيب فيها ذكرى والدي السجين.

كنتُ أقضي قرابة شهر في تلك الحارة التي تبدو لي أشبه بالجنة، ارتاح من القيام بالأعباء المنزلية، أخرج من دار وأدخل الأخرى، الجميع يحبني، يقيمون الولائم لي، وتتصدر موائدهم الكبب والمحاشي والشعيّبيات التي أحبها. وفي المعرة علَّموني أركان الدين، ألبسوني ثوبًا طويلًا، غطوا رأسي الصغير بالمنديل، وصرت أصلي وأصوم معهم، أستعير قصص الخلق والأنبياء المصوَّرة من مكتبة المدرسة التي تديرها ابنة المفتي، وكانوا يفرحون بتعبدي وقراءاتي، وأنا لم أكمل أعوامي التسعة بعد.

حدث انقلاب حافظ الأسد، خرج والدي من السجن، ووُضع تحت الإقامة الجبرية ريثما تنتهي محاكمته. كانت أمي تدخل عامها الواحد والأربعين، فرحتْ قليلًا، وتغيَّرتْ جذريًا، قلَّصتْ من ساعات تدريسها، وتسلَّمت إدارة أحدث ثانوية للبنات في اللاذقية، فرشتْ منزلنا بلمستها الأنيقة، سافرتْ إلى بيروت، قصتْ شعرها الناعم

وصبغته بالأشقر، اشترت الملابس الفاخرة ومواد التجميل الغالية، وأخذت تقضي الساعات أمام مرآتها، حتى استعادت جمالها الذي كاد الألم أن يودي به، لكنها لم تغفر خيانة أبي لها في يوم من الأيام. لم تعد تحبه، صارتْ مريضة به، وقررتْ أن تلازمه كظلِّه وتنتقم.

باتتْ تتذمر من سلوكه، تسخر من أفكاره، تتعالى على أهله وأصدقائه، تشكُ به، تتجسس عليه، تحاول شيّطنته أمامنا وأمام الآخرين، وحين لا تنجح يُجن جنونها، ونصبح جميعنا مدانين ومتآمرين، تحوَّلتْ إلى طاغية الأسرة، وحوَّلت حياتنا إلى جحيم. وأبي الذي كان يشعر بعقدة الذنب إزاءها، لن تفارقه أبدًا، كان يقابلها بكل التسامح والصبر. وأنا التي لم أنجح في إخفاء تعاطفي وحبي لأبي، كنت على الدوام ساحة غاراتها وسخطها، وحين قلتُ لها "طلقيه وانجِ بنفسكِ" أسقطتْ عني حبها وكامل حقوقي.

على العكس منها كان السجن زاد من شعبية والدي وتواضعه، نزع من عقله أي إيمان بحزب البعث وأي وهم بإصلاحه، قرر أن يعيش معنا حياة هادئة، ويعطينا ما نحتاجه من حب واهتمام. حاول الأسد أن يستميله إلى صفه، أغدق عليه بالعروض، وزارة أو رئاسة إدارة في مؤسسات هامة، ورغب أبي في العودة إلى عمله في مرفأ اللاذقية، وانتهت المناورات بأن بقي عاطلًا عن العمل، وصرف القصر الجمهوري له راتبًا شهريًا مقداره خمسمئة ليرة سورية، كانت حينها من أعلى رواتب الدولة.

عقد عزمه أن يترافع عن نفسه في المحكمة، وكنت أراه يطيل الجلوس وراء مكتبه، يدرس القانون، ويكتب ملاحظاته، يذهب في مواعيد الجلسات، يحرج القضاة، وبدأت الموازين تميل إلى صالحه، حين أُغلقت القضية فجأة، قبل أن تنتهي بأمر من السيد الرئيس، ورُفعت عن أبي الإقامة الجبرية. سافر إلى بيروت، وسجل في الجامعة للمرة الثالثة، ولم يكد يكمل امتحانات السنة، حتى اندلعت الحرب الأهلية اللبنانية، وبات من المتعذر عليه الاستمرار بالدراسة.

***

حمل الأسد للسوريين الكثير من الوعود، وخرجوا إلى الشوارع يستقبلونه بالورود، وتنفس العباد هامشًا من الحرية، ريثما تم تشييد الدولة الأمنية وإعادة هيكلة المؤسسات. لم تنطلِ اللعبة على أبي، كان يرقب بحزن، وينتقد أمام صحبه: إنشاء "مجلس الشعب" في عام 1971، وتعين أعضائه. تأسيس "الجبهة الوطنية التقدمية" عام 1972 كصيغة وحيدة للتعددية السياسية، تعترف الأحزاب المنضوية تحتها بقيادة البعث الحصرية لها، ويُحظر عليها العمل بين أوساط الطلبة والعمال. إعلان دستور جديد عام 1973، يمنح رئيس الجمهورية (الأمين العام لحزب البعث) حق قيادة الدولة والمجتمع والجيش والقوات المسلحة والسياسة الخارجية، وصلاحيات الرئيس تتجاوز التنفيذي إلى التشريعي، فهو يملك حل مجلس الشعب، والتشريع في غير دورات انعقاده، رد القوانين، تعيين نوابه ورئيس مجلس الوزراء وأعوانه والوزراء، وإعفائهم من الخدمة،

إعلان حالة الحرب، وحالة الطوارئ وإلغائها. وحين بدأت سياسة "التبعيث" وتأطير المجتمع في هيئات شعبية موالية لِلَجم الحركة المطلبية، بدأ أبي يجاهر بمعارضته لسياسة النظام.

كانت الخطب المتكررة عن الديمقراطية المزعومة ضربًا من الخيال الساخر في ظل الإجراءات الجديدة، وأجهزة الأمن التي تكاثرت للإمساك بأعناق المعارضين، سواء كانوا داخل البلاد أم خارجها. بدأ التململ الشعبي يجتاح الشارع السوري، وزاد الاحتقان بدخول الجيش السوري إلى لبنان.

قبل ذلك قرر أبي أن يكشف زيف الادعاءات، أقنع أمي أن تترشح لمجلس الشعب في القائمة المستقلة عن قائمة البعث، وخاضت الانتخابات. صار بيتنا أشبه بخلية النحل، يجتمع المرشحون، يخططون لحملتهم، يصوغون برنامجهم، يقدرون مناطق قوتهم وعدد ناخبيهم. بعضهم تلقى تهديدات مجهولة بتصفيتهم إن لم ينسحبوا، ذُعروا جميعًا ولم يزّعنوا، وتبرعتُ مع المتطوعين بلصق صورهم وبرنامجهم على جدران اللاذقية.

كان فرز الأصوات لصالح القائمة المستقلة، قبل أن تُستبدل صناديق الاقتراع عنوة بصناديق الـ"نعم" لقائمة البعث. خسرتْ أمي المعركة الانتخابية، وعُوقبت بإحالتها من إدارة الثانوية إلى مراقبة مختبر مدرسي، لا يملك أية معدّات. كان ذلك بمثابة الاستغناء عن خدماتها، ووضعها على الهامش إلى يوم تقاعدها، وبعد فترة وجيزة حُلَّت النقابات المستقلة (الأطباء، المحامين، المهندسين) بعد أن

دعت إلى إضراب عام للمطالبة بسيادة القانون واحترام حقوق الإنسان.

ما دور أبي وموقعه في تأسيس خلايا "رابطة العمل الشيوعي"؟

لست أدري، على الأرجح كان بصفته الاعتبارية، يسهم في التنظيم والتشبيك وكسب المؤيدين والأعضاء. طوال النصف الأخير من السبعينيات كنت أراه منهمكًا في اجتماعاته السرّية مع قادة الرابطة أو المعارضين، داخل غرفته المغلقة أو في بيوت الأصدقاء، وكانت نشرة الرابطة "الراية الحمراء" مخفية في أدراجه، يعد لها التقارير، يقرأها باهتمام، يدعونا، ويدعو ضيوفه لقراءتها، لكنه لم يحضر الاجتماع التأسيسي الأول في بيروت. الاجتماع الذي تبعته أولى حملات الاعتقال الواسعة في صفوف رابطة العمل، بعدها صار مجرد الشك في قراءة الراية أو تأييد الرابطة، تهمة تستدعي التحقيق. يومها كنت ألاحظ، أن أغلب المعارضين من أصدقاء أبي وقسم كبير من المعتقلين، كانوا من العلويين، كانوا أول من بادر إلى سحب الغطاء عن النظام.

أواخر السبعينيات صارت المدن السورية تغلي، وتنال نصيبها من القمع الوحشي. أبي يجاهر بعدائه للنظام، ونعيش تحت أعين المخبرين، لكن أحدًا لم يقتحم منزلنا ويعتقله، حتى سُئل أحد المعتقلين من تريده أن يكون رئيسك؟ فأجاب: "خالد الجندي". هل كان لتلك الحادثة علاقة مباشرة ببدء التضييق على أبي، أم أنها مجرد مصادفة؟. ما أعرفه أنه مذ ذاك الحين، بدأت تطول وقفته

على مفارز الأمن، يُفتش بإمعان، ونجا لثلاث مرات من حوادث سير كانت تبدو مدبَّرة، إلى أن فاجأني بزيارته لي في صوفيا بعد سفري بعام. سألته، "لماذا لم تخبرني بقدومكَ"؟ قال: "صدر أمر رئاسي باعتقالي، وتصفيتي في السجن"، سألته مستغربة "ما أدراكَ؟" أجاب: "أخبرني من تلقى الأمر. قال: لو أن المسألة تقف عند سجنكَ وتعذيبكَ، لما ترددتُ، أما أن أوقّع على موتكَ، فلن أفعلها. طلب مني أن أغادر البلد، قبل مضي أربع وعشرين ساعة وتعميم الأمر على دوائر الأمن ومراكز الحدود".

لم يذكر أبدًا اسم الذي أَنقذه أو منصبه حرصًا على الرجل من حبل المشنقة. خرج أبي من سوريا، ولم يعد، وصار اللقاء العابر به يستدعي المساءلة لدى دوائر الأمن. غادرني في بلغاريا، ورتب إقامته في برلين الشرقية بمساعدة اتحاد عمال ألمانيا الديمقراطية (سابقا)، انقطع راتبه من دمشق، وعاش على تبرّعات أصدقائه المعارضين، لم يعد قادرًا على العمل أو الدراسة، بحكم "الغريب" في القوانين الاشتراكية، ولم يعد قادرًا على النشاط السياسي العلني، ضد دولة صديقة للألمان مثل الدولة السورية.

كانت الحرية الشخصية هي الوحيدة المتاحة له، وغرف منها على قدر المستطاع. كتب لأمي آسفًا أنه لم يكن الزوج الصالح، ولن يكون، طلب منها أن تبدأ حياتها مع غيره، وبدأ حياته مع ممرضة ألمانية تقربه في السن. طار صواب أمي، أخفتْ كل وثائق

زواجهما، وأصرت، "لن يحدث الطلاق"، لحقتْ به، لم تتمكن من الإقامة عند لاجئ، فاستعاضت عنها بزياراتها الطويلة له كل عام.

صفحة أخي سليمان التي ظلت مطوية قيد الكتمان بين أبي وأمي، طفت إلى السطح من جديد. كان أبي يجلس في مقهاه المفضل بساحة ألكسندر بلازا، اقتربت منه امرأة في مثل سنه تقريبًا، سألته بتهذيب: "هل أنت، خالد الجندي؟"، ابتسم: "أنا، هو"، تأملها مليًا ولم يعرفها، قالت بارتباك: "أنا أم طفلك"، قال في سره "لم يبقَ من جمالها أثر". دعاها لمشاركته قهوة الصباح، وطلبتْ منه أن يلتقي ابنه، ارتعب، "لا تخشى شيئًا" قالت "فقط أريد لابني أن يتأكد من حقيقة أبيه، هذا حقه"، حدّدتْ موعد اللقاء في نفس المقهى، والتقوا ثلاثتهم.

كان أخي على مشارف الثلاثين، ضابطا في البحرية الألمانية، فارع الطول، أسمر البشرة يشبه أبي. تحادث الأب والابن الغريبان ببرود شديد، وافترقا دونما مشاعر تُذكر، ومن دون أن يكلِّف أحدهما نفسه بأخذ عنوان الآخر. علمنا أنا وأختي بقصة أخينا الألماني، وفقدنا أثره، حاولنا التقصي عن عنوانه، بحثنا عنه على الشبكة العنكبوتية حين دخلتْ سوريا، لم ننجح، ولا أزال إلى اليوم أتخيله في أحلامي.

بقي أبي في ألمانيا حتى التقاه "الختّيار" (ياسر عرفات)، ودعاه إلى تونس للعمل معه كمستشار نقابي عام 1986، وقبل أن يغادر مكانه، كتب لمجلة "فلسطين الثورة" مقالًا يتهم فيه حافظ الأسد

بالعمالة لأميركا. وفي منفاه الثاني انتعش مجددًا، البلد جميل وراتبه الشهري يفوق الألف دولار، وفوق ذلك حماية أبي عمار في أفضل مرحلة عاشتها منظمة التحرير بعد خروجها من لبنان. ولم يكد أبي يرتب حياته الجديدة، ويبدأ نشاطه السياسي، حتى التحقت به أمي من جديد، ولم تفارقه حتى لفظ نفسه الأخير، على الرغم من كل رجاءاته لها أن لا تفعل.

عمل أبي كل ما بوسعه لإسقاط النظام السوري، كتب في الصحف ضد مفاسده ومظالمه. التقى بمختلف أطياف المعارضين، بمن فيهم بعثيّ العراق، وجماعة الإخوان المسلمين. حضر الاجتماعات وشارك في أول مؤتمر دولي لحقوق الإنسان العربي، أُقيم في جينيف عام 1989، وقدَّم تقريرًا مفصلًا عن الانتهاكات في السجون السورية ولوائح كاملة بأسماء المعتقلين. وحين اجتاح صدام الكويت، لم يتردد في تأييده، وشعر أن نهاية آل الأسد اقتربت.

لم تطل فرحته كثيرًا، خرج صدام مهزومًا من الكويت، حُوصر العراق اقتصاديًا، قُصفت بغداد، وانقطعت الإمدادات المالية عن منظمة التحرير، ضاقت أحوال أبي المادية والمعنوية، وفقد أمله وقدرته على المناورة السياسية، سيما بعد توقيع معاهدات أوسلو وانتقال أبي عمار إلى غزة.

في زيارتي الأخيرة لتونس، فاجأني أبي بالسؤال، إن كان ثمة كابوس يتكرر لي باستمرار؟ قلتُ "أسناني تسقط، وتفرط بين أصابعي، وأنتَ"، قال "أجدني في سوريا، الأمن يلاحقني، وقبل أن

يقبضوا عليَّ، أوقظ نفسي فزعًا". لم يخطر على بالي في يوم، أن والدي الشجاع، تجتاحه أوقات من مثل هذا الضعف البشري. أحببته أكثر، ولم أتخيل حينها أن عشرين عامًا سوف تنقضي، ويبقى نظام الأسد، يقضّ مضاجع السوريين بكابوس أبي كل ليل.

قبل وفاته بأقل من عاميّن، منحت السلطات الإسرائيلية والدي تصريح الدخول إلى غزة، أقام فيها، عمل في "اتحاد نقابة العمال"، حمل الجنسية الفلسطينية، خاض معركة مع الإسلاميين المتشددين، استأنف اتصالاته بالمعارضين السوريين في الخارج، وحقق حلمه في رؤية كامل فلسطين. كان الفرح يقفز من صوته وهو يهاتفني: "بلد مثل الجنة، وغزة كأنها السَّلمية، لولا البحر" وحين التقينا آخر مرة في القاهرة، كان يرغب أن يريني وطنه الجديد، لكن ذكر أبي عمار في وطن الممانعة، كان خيانة، فكيف تكون زيارة بلد يحكمه؟ لم أجرؤ على تلبية دعوة أبي وطلبه الأخير.

اكتبْ أفكاركَ بنفسكَ يا أستاذ

إقامتي في بلغاريا شارفت على الانتهاء، كذلك مدخراتي المتواضعة، وأنا على عتبة الانفصال عن زوجي، أحمل شهادتي بيدي، وأقف على أسوأ مُفترق طرق وضعني القدر عليه، والضباب الكثيف يلفّ كل الدروب من حولي. لم أُولد وفي فمي ملعقة الذهب، أسرتي متوسطة الحال، انتعشتْ في فترات قصيرة، وعانتْ من انتكاسات كثيرة، وهي اليوم تعيش أصعب أوقاتها. أمي متقاعدة براتب خمسين دولارًا، وراتب أبي يعاني من انقطاعات طويلة، وعليَّ أن أنتج حياتي الجديدة من دون أن انتظر العون أو السند من أي أحد.

كيف أبدأ وأين؟ سؤال يؤرقني ليل نهار، وتخذلني بصيرتي. هل أخاطر وأعود إلى وطني؟ "أياكِ والعودة، الأمن يطلبك" قالت أمي، حين اعتُقلت أختي، وما من سبيل للتأكد من دقة معلوماتها سوى أن أخوض التجربة بنفسي، وأنا لم أجرؤ على دخول سوريا منذ خمس سنين. هل التحق بأبي في تونس، وأعمل في إعلام منظمة التحرير؟ هذا يعني أني سأحمل صفة سياسية، سوف تجبرني أن أقطع نهائيًا مع بلدي، شئتُ أم أبيّتُ. هل أبقى في بلغاريا وأحصل على جنسيتها، وأحاول البحث عن عمل يطعمني، لكن الوطن البديل في طريق تحوِّله إلى الرأسمالية، يعيش الفوضى والغلاء والانفلات الأمني، بحيث يبدو التفكير بالاستقرار فيه ضربًا من

التهوُّر. هل أغادر إلى الإمارات أو أي بلد أوروبي، وكيف لي؟ وأنا لا أملك سوى سعر تذكرة السفر، وشهادة دولة اشتراكية منهارة لم يعد يعترف بها أحد.

"شو هالآخرة يا فاخرة...؟" وقطع حبل تفكيري رنين الهاتف، رفعت السَّماعة، وباغتتني صوت أختي، مشتاقة قلناها معًا، وبكينا. كنتُ أول من اتصلتْ به بعد خروجها من المعتقل، وقالتْ "بدك تجي، ونعيش سوا"، وكان ذاك كافيًا أن أحسم أمري باتجاه العودة إلى سوريا. وطني أحوج إليَّ من أي بلد آخر، وأختي أغلى الناس إلى قلبي. وحين أخبرتُ أبي بقراري، اعترض: "لن يدعوكِ تعملي، ولا حتى تعيشي بسلام"، تحديّتُه، سأذهب وأعمل "أنا بنتقد كتير، بس ما اشتغلت بالسياسة متلك". قال: ستندمين.

حزمتُ ملابسي، وضعتُ في حقيبة يدي الألف دولار التي أهداني إياها أصدقاء والدي بمناسبة حصولي على الدكتوراه، وفي مساء يوم تشريني من عام 1992 وصلتُ مطار دمشق الدولي. مددّتُ جواز سفري لموظف الأمن، أخذه وغاب، وبدأتْ "ركبي تقّصف" من الخوف. ماذا لو اعتقلوني؟ صرتُ أتلفت يمينًا وشمالًا، صور الرئيس تنظر إليَّ وتزيدني إحساسًا بالعجز، وأنا أتخيَّل رحلتي في السجن، يضّرب قلبي بقوة أضمه بذراعي، يسبح عرقي على جبيني أمسحه وأزفر، هذه المشاعر أعرفها جيدًا، أعيشها كلَّما وقفتُ على حدودك يا وطن.

لحسن حظي لم يتأخر موظَّف الأمن، عاد مبتسمًا وسلَّمني الجواز. خرجتُ من بوابة المطار، لفحني هواء دمشق، وأدركتُ عمق حنيني، وددّتُ لو أنحي وأقبّل الأرض. قطعني هجوم أختي ومعها خالي وبناته، تعانقنا، وانحشرنا جميعًا في سيارة الخال، التي أقلتنا إلى بيته في "الجسر الأبيض"، وهناك استقبلتني المائدة العامرة بأشهى الأطباق السورية، أكلنا وشربنا وتسامرنا وضحكنا حتى الفجر، بعدها أغمضتُ عينيَّ، وغرقت بوسن لذيذ، وأنا موقنة أن قرار عودتي كان أكثر قرارات حياتي صوابًا.

شهري الأول قضيته عند خالي مثل السائحات، دعوات ونزهات وجلسات تعارف. كان واحدًا من أجمل شهور العمر، تجولتُ في دمشق القديمة والحديثة، دخلت أسواقها وحدائقها ومطاعمها، لم أكن أتوقعها بهذا الجمال، سحرتني بكل ما فيها، وقررت أن أهبها ما بقي من حياتي. بدأتُ رحلتي باستئجار غرفة بائسة في "ركن الدين"، سكنتها مع أختي التي كانتْ وجدتْ لنفسها عملًا في مكتب خاص، ريثما تستكمل أوراقها، وتستطيع متابعة دراستها الجامعية التي قطعها السجن، وأنا بدوري رحتُ أبحث عن فرصتي في العمل، وأعود خائبة كل يوم.

بعد شهريّن سافرتْ أختي إلى حلب، والتحقتْ بكلية الهندسة الميكانيكية، وأنا ضقتُ ذرعًا بسكني القبيح، وهجرته إلى المزّة "فيلات غربية"، أرقى أحياء العاصمة. كان مُؤجِّري من ألطف الملاّك، لكن بيتي كان ضيقًا وفقيرًا، يلوذ بسطح إحدى البنايات

الفخمة، غير أن إطلالته كانت رائعة، شوارع نظيفة ومُشجَّرة، وفسحات الطوابق الأرضية خضراء، ملونة، مهنّدسة بالرخام وبرك الماء، تفوح من أسيجتها روائح الياسمين ومسك الليل، وما إن يأتي الغروب حتى أغسل سطحي، وأجلس مع تبغي وقهوتي، اقرأ حينًا، أراقب حياة الأثرياء عن بعد، وأخطط لغدي.

***

كانت جميع وسائل الاتصال مملوكة من الدولة، وكان التقدم إلى الوظيفة الحكومية، يحتاج إلى صفة حزبية وموافقة أمنية، وواسطة من العيار الثقيل، وقدر لا بأس به من المال لدفع الرِّشى، وأنا التي لا أملك أيًا من تلك الشروط، لم أصدق أني بمؤهلاتي العلمية وإصراري على طلب حقي، لن أستطيع خرق هذا الجدار. تربيّتُ على أن العلم هو بر الأمان، والشهادة الجامعية هي ضمان الحياة الكريمة، وكنت متفوّقة في دراستي.

دخلتُ كلية الصحافة في جامعة صوفيا، بعد تفكير طويل عن الأنسب لتكوني وميولي ومستقبلي. لم يكن دوامي منتظمًا، لكني اجتزت امتحاناتي بعلامات عالية. تدربت على طباعة الصحف وإخراجها بواسطة الكومبيوتر، واخترت الإعلام المرئي مجالًا لاختصاصي في سنتي الأخيرة، وكتبت أطروحتي عن الإعلام والتنمية الثقافية، وكنت أهتم بثقافتي، وأتابع آخر تطورات التقنيات الحديثة، ولا يعقل أن لا أجد عملًا في بلد تعوزه أدنى الكفاءات الإعلامية.

اتصلتُ برئيس القسم الثقافي في جريدة "الثورة"، قابلته، وعلى مكتبه وضعتُ مقالتي، قرأها باهتمام، وقّعها أمامي، وأرسلها للنشر، كان لطيفا للغاية، وقال: قلمكِ جميل، مقالتكِ ستُنشر بعد يوميّن، وأنتظرُ منكِ المزيد. انتظرتُ شهرًا بطوله، ولم تُنشر المقالة، حاولتً الاتصال به ثانية، ولم أنجح.

تواعدّتُ مع مدير التلفزيون، وذهبت إليه، ومعي صور مترجمة ومصدَّقة عن شهاداتي، استقبلني بحفاوة بالغة، وصادف أن كان من السَّلمية يعرف عمي سامي، ويكن له مودة خاصة. قال لي: جئتِ في الوقت المناسب، نحن نستعد لإطلاق الفضائية السورية، اعتبري نفسكِ موظفة عندنا من هذه اللحظة، شكرته، وسألته، وماذا عن الموافقة الأمنية؟ أجاب: لا تقلقي سأتدبر كل شيء بنفسي، أيام معدودات وأطلبكِ لتوقيع عقد العمل. أخذ صور شهاداتي وجميع المعلومات للاتصال بي، وأرسل سائقه لتوصيلي إلى منزلي. لم يتصل بي، ولم أستطع الحديث معه ثانية، وتلاشت فرحتي.

التقيتُ بمدير مكتب إحدى المجلات العربية، اتفقتُ معه على كتابة مواد ثقافية، وأحضرتُ له اثنتيّن بعد أسبوع، مقالة نظرية حول مفهوم الثقافة والمثقف، وعرض لمجموعة شعرية صدرتْ حديثًا في دمشق، اطلع على المقالتيّن وشكرني، شربنا القهوة، تجاذبنا أطراف الحديث، وكان لطيفًا حتى ذكرت له اسم أبي، لن أنسى كيف انتفض، واتسعتْ حدقتاه، وكاد أن يقع من على كرسيه. فهمتُ أنه

من "عِظَام الرقبة"، ولن يجازف بتشغيلي، ومن دون الكثير من الكلام ودعته، ولم أعد إليه.

ذهبتُ إلى وزارة الإعلام، وتركتً عند سكرتير مكتب الوزير طلبي للعمل في إحدى المؤسسات الإعلامية مرفقًا بصور شهاداتي، ولاحظت أن الطلب بقي بلا رقم ولا ختم الوزارة. وأن الورقة التي قُدمت لي لكتابته، لم تكن رسمية. كذلك لاحظت أن مبنى الوزارة مثله مثل باقي الدوائر الحكومية التي دخلتها، كان مهملًا من الداخل، الرطوبة تأكل جدرانه، النظافة تعوز الأرضيات ودورات المياه، والمعاملات الرسمية تتكدس بفوضى عجيبة على مكاتب الموظفين، وهم على الأغلب غير متواجدين في أماكنهم لاستقبال المراجعين. كان العداء واضحًا بين الموظف ومكان عمله، وبينه وبين المواطن الذي يحتاج إلى خدماته.

بقيتُ ستة شهور أراجع مكتب سكرتير الوزير، ولم أحصل على جواب لا بالنفي ولا بالقبول. ألّححتُ على الرد، وطلبتُ مقابلة الوزير، حينها استدعاني مستشاره، وأفهمني بلطف شديد وصوت خفيض، أن لا أُتعبَ نفسي أكثر بالمراجعات، ليس لي مكان شاغر في دوائر الإعلام بحسب الأوامر العليا، لا لإشكال في وضعي بل لأني ابنة ألد أعداء النظام. شكرتُ المستشار على صراحته، وخرجت أجر يأسي.

قبل ذاك اليوم المشؤوم، كان أصبح لي الكثير من المعارف في دمشق، وانتشر خبر توظيفي العاثر، وجاءتني عروض من أناس لا

أعرفهم عبر أناس أعرفهم، لم أرتح لأي منها، وبعضها أشعرني بالسخط، لأني أحسست أنها مشبوهة، تعزف على وتر حاجتي. أسوأ تلك العروض كان أن أشرب القهوة مع أحد مدراء الأجهزة الأمنية لقاء إنهاء معاناتي. رفضت العرض، وطردت الوسيط من منزلي مع أنه كان قريبي، وكنت أكن له الكثير من الود.

أفضل العروض كان أن أسجل حوارات متلّفزة مع بعض الفنانين السوريين في القاهرة، ولا أدري لماذا توجسّتُ، ولم أحضر بروفا التصوير، فأنا لم أبدأ مشواري المهني بعد، ولا أملك الخبرة الكافية، فلماذا وقع اختيارهم عليَّ؟!

أغرب العروض جاءني من شخص كان مدعومًا ومعروفًا في أوساط المثقفين، دعاني إلى مكتب صديقه الفخم، ووعدني أن ينشر لي مقالة أسبوعية في صحيفة "تشرين"، لقاء ألفيّ ليرة سورية في الشهر (أربعون دولارًا حينها)، مبلغ تافه، لكنه يساوي تقريبًا راتب الموظفين المبتدئين، ومن دون تردّد وافقتُ، ورحت أبحث معه التفاصيل، وقبل أن تكتمل فرحتي، فاجأني الرجل، أنه هو من سيملي عليَّ أفكاره السياسية، وأنا سأصوغها، وسيظهر مقالي موقّعًا باسمه، وبعد عدة شهور قد يظهر اسمي من حين لآخر على مقالاتي. فقدتُ لباقتي، وقلتُ: اكتبْ أفكاركَ بنفسكَ يا أستاذ.

حَسِبتُه عاشقًا وتبيّن أنه مُخبر يتبعني

قبل أن ينتهي عامي الأول في دمشق، وتنفذ آخر مُدخراتي، وجدتني مضطرة أن أحزم أمتعتي من جديد، وأنطلق إلى اللاذقية، أقلّه هناك بيت أسرتي المهجور منذ سنين بإمكانه أن يؤويني. وصلتُ مرهقة، الغبار الكثيف يغطي باب العائلة، والمنزل الجميل، الأنيق أضحى مرتعًا للأوساخ والأعطال والحشرات من كل الأنواع والأشكال. خضتُ معركة النظافة والتجديد، ونوافذي التي انفتحتْ بعد الإغلاق الطويل، دلَّتْ معارف الأسرة وصديقات المدرسة عليَّ، والجميع لم يتأخر عن مساعدتي، كأني لم أبرح مكاني.

بسرعة رتبّتُ أوضاعي، ودخلت شبكة واسعة من العلاقات القديمة والحديثة، وبدأت أبحث عن عمل في المكاتب الخاصة، التي لا تحتاج شهادتي، ولا تمت بأية صلة للإعلام، ففي مدينتي الساحلية الصغيرة تقل الأنشطة الثقافية، ولا تصدر سوى صحيفة يومية واحدة من صفحتين، وأنا تعلمتُ الدرس، لا شاغر لي في الدوائر الرسمية.

في ذاك الحين كانت معظم مكاتب القطاع الخاص في مدينتي من النوع الخدمي، لتسيير شؤون السياحة والسفر، برًا وبحرًا وجوًا، لكن فرص العمل فيها محدودة جدًا. داخلها أنيق ونظيف في أغلب الأحيان، لكن الدوام طويل من الثامنة صباحًا وحتى الثامنة مساء، والأجور لا تتجاوز الخمسين دولارًا. كانوا يسألونني، إن كنت أُتقن الإنكليزية واستخدام الكومبيوتر، وكنت أستغرب هذا السؤال في بلد

يعيش معزولًا عن الآخرين، وفي مكاتب لا تملك من التقنيات الحديثة غير الهواتف وفي أحيان نادرة الفاكس. وأدركتُ فيما بعد، أن السؤال كان يحمل تعبيرًا فعليًا عن عقد النقص وعن الرغبة في الانفتاح على العالم.

مهما يكن من الأمر، فقد بدأتُ أتعلم الإنكليزية ومبادئ بيع التذاكر الجوية والبحرية، ووجدت عملًا بمؤهلاتي الجديدة في أفضل مكتب سياحي، وكنت سعيدة بنجاحي في تجربتي المهنية الأولى، مع أن حركة السفر كانت محدودة جدًا والبيع قليل، وكان جلّ عملي يقتصر على مسايرة المدير، وتقديم القهوة والشاي لزواره، وتحضير السندويشات للمسافرين بحافلات النقل البري التابعة للمكتب.

لم أتذمر، ولم أشعر بالاستياء، ولم أجد في الكدح الشريف ما يعيبني. أن آكل لقمتي بعرق جبيني أفضل من التبطُّل وانتظار إحسان الآخرين. لكن مع راتبي المتواضع، أضحت معظم مفردات حياتي ضربًا من الكماليات. صرتُ أدخن أردأ أنواع التبغ المحلي، أمشي طويلًا، ولا أركب التكاسي ولا حتى المواصلات العامة، تنازلت عن أكل اللحوم، واكتفيت بشمها مشوية لدى مروري قرب اللحَّام، تخليت عن غرامي بالفاكهة والحلويات، حاربت ولعي بارتياد المقاهي وشراء الألبسة، وكما يقولون مددتُ رجليَّ على قدّ لحافي القصير.

وزاد من ضيقي حالة الحداد العام التي فُرضت على المدينة جراء وفاة باسل الأسد. أُغلقتْ المحال التجارية والمدارس ودوائر العمل،

واتشح المواطنون بالسواد، وفرغت الشوارع من الناس، ومع ذلك غامرتُ، وذهبتُ إلى عملي بملابسي الملونة، وحين وجدت المكتب مفتوحًا، تفاءلت بالخير، هذا يعني أن مديري من المعارضين.

لم تطل فترة عملي في مكتب السياحة، بعد ثلاثة شهور بتُّ أشعر بالإرهاق والمللّ، ومديري الذي دللني واحترمني في البداية، صب جام غضبه عليَّ بعد حين، وفتح ورشة إصلاحات فوق رؤوسنا نحن العاملين، ابتلعتُ الإهانات والغبار لفترة، ثم رفعتُ صوتي، أفّرغتُ قهري وغادرت.

جلستُ على شرفتي حزينة، أفكر بمأزقي، تذكرت أملاك أبي "المشاع" التي لم تسعف أيًا منا، على الرغم من كل الأزمات المالية التي وقعنا بها. كتبتُ له أن يرسل لي وكالة عامة لتفويضي بالتصرف نيابة عنه، قلتُ سأرفع دعوى لفرز الأراضي والعقارات، وسأبيع حصتك، وأُوزِّع المبلغ بالتساوي علينا. وافق على طلبي، وأرسل لي وكالة التفويض، لكنها كانت تحتاج لختم الأمن، وبعثتها إليه لأخذ الموافقة.

لم أُدعَ إلى مراكز الأمن، لكنهم سألوا عني الجيران وأهل الحي، وزاروني في بيتي أكثر من مرة. كنت أتفاجأ بهم يقرعون بابي في الصباح الباكر أو المساء، لم يبرزوا أمامي مهمتهم أو هويتهم، أو من أي فرع يأتون، ولم أطلب منهم أي إيضاح لشدة رعبي. كانوا في مشارف الثلاثين من أعمارهم، وسيميّ الطلة، يرتدون الزيّ المدني. عرفت وجه أحدهم، كان يلاحقني منذ أيام المدرسة، ورأيته

مرات أمام واجهة مكتب السياحة الذي عملت فيه، كنت أحّسبه عاشقًا متيّمًا، واكتشفتُ أنه مخبر عليَّ، وحين نظرتُ إلى عينيّه الزرقاوتيّن مستغربة ومذعورة، ارتبكَ، وكانت تلك آخر مرة شاهدته فيها.

آخر المحقّقين دخل منزلي في الثامنة صباحًا، قبل أن أشرب قهوتي، وأجلسني طويلًا أمامه بلا حراك، واستفسر بالتفصيل عن أبي وأختي وعني، وكنت أبدي استغرابي من أسئلته، سيرتنا معروفة للقاصي والداني، فكيف يجهلها رجل الأمن؟ لم أخفِ شيئًا عنه، وهو أبدى تعاطفه معي، ووعدني أن يأتيني بالموافقة الأمنية، وبعد شهر عاد التوكيل إليَّ مع الرفض.

تقوَّضتْ أحلامي بالثراء، وعدتُ ثانية إلى العمل، هذه المرة سكرتيرة في مكتب افتُتح حديثًا لتصميم الإعلانات. مهنة أقرب إلى اختصاصي من قطع تذاكر السفر. أشرفتُ على الموظفين، نظّمت اللقاءات، وقدمّتُ القهوة والشاي للزوّار. أرشفتُ الإعلانات في مصنَّفات حسب الموضوع، كتبتُ بعض أفكار الدعايات، لاحقتُ الزبائن لدفع مستحقاتهم المتراكمة، ونجحتُ إلى حد ما في المهمات الموكلة إليَّ. لكن حين لفتتُ انتباه صاحب الشركة، وبات يشرب قهوته في غرفتي الضيقة، بدأ مديري يضايقني بملاحظات استفزازية، لم أجدها في محلها، وأمام عينيَّ صفع وجه الفتى الفقير الذي كان يعمل أجيرًا في المكتب. تزامن الاستفزاز مع إرسال أحد أقارب الأسرة المالكة لمبعوثه إلى مكتبنا من أجل تصميم إعلان

لصفقة سيارات. كنت أنهي شهري الثالث، وحين تقاضيتُ أجري الضئيل، تساءلت ما الذي يبقيني؟ قلت لمديري لم يعد يعجبني العمل عندك، وتركته مشدوهًا.

صرفتُ النظر تمامًا عن التفكير بالعمل في المكاتب الخاصة، شعرت أنها غطاء لأعمال أخرى تجري في الخفاء، وصرتُ أفكر مليًا بموقع يناسب شهادتي، وأجر يكيفني في مكان بعيد عن جحيم بلادي. وصادف أن أعلنتْ إحدى الجامعات الحديثة في دولة الإمارات العربية عن طلب مدرِّسين للعمل لديها من جميع الاختصاصات ضمنها الإعلام، تقدمتُ بطلب التوظيف فورًا، وجاءتني رسالة رسمية من الجامعة، تعلمني بوصول طلبي، وتطلب مني التريث حتى يتم البت بأمره، طال انتظاري ولم أحصل على مقعد التدريس.

أرسلت لجريدة "البيان" أطلب العمل، ولم يأتني الرد، لكن مندوب إحدى المجلات العربية الفنية هاتفني، وطلب لقائي بخصوص العمل لديه. ذهبت سعيدة إلى موعده، وهو أشاد بشهادتي العلمية، واعتبرها مدخلًا هامًا لإجراء حوارات مع فنانيّ سوريا المغمورين الذين يتطلعون إلى الشهرة. سألته عن راتبي، أجابني: "لن ندفع شيئًا، ستطلبين ممن تحاوريه مبلغًا لا يقل عن خمس وعشرين ألف ليرة، لك ربعها، ولنا الباقي، وأنتِ وشطارتك". غضبتُ، وحاول استرضائي، وكان كلما استفاض في الشرح، كلما ازداد رفضي.

***

لا أحب دخول منزل العائلة الواسع، ما إن أضع المفتاح في الباب حتى ينقبض قلبي، وأشعر بوحدتي. أختي في حلب، أمي وأبي في تونس، وأقاربي كل في مكان، وأنا لم ألتقِ من أحبه، وأشاركه الحياة بعد طلاقي، وثمة فراغات في روحي لا تملأها قراءة الأدب ولا الصداقات. أتسكع طويلًا، أدخل عتمتي ببطء، وأحتاج إلى وقت حتى أستردّ نفسي من وحشتها.

لا أذكر في أي يوم، لكني كنت دخلتُ عزلتي والليل في أوله، حين أيقظني جرس الهاتف من شرودي. قلتُ: نعم، وأتاني صوت لا أعرفه، يغمّغم بكلام لم أفهمه، "عفوا، من المتكلم، ماذا تريد؟" استمر الصوت وكأن المتحدث لا يسمعني. اعتقدتُ للوهلة الأولى أن الخطوط تشابكت كعادتها، أغلقتُ السماعة، وعدتُ إلى جلستي، وعاودني الرنين مرة أخرى، نفس الصوت لكنه واضح وعميق، يهددني بالذبح، ويصف لي المشهد مع دمائي التي تسيل على أدراج بيتي.

أصغيتُ جيدًا، واقشعرّ بدني، وصرخت من؟ استمر الصوت بلا انقطاع، وتكرر التهديد بحذافيره. أدركتُ أنني أستمع إلى تسجيل صوتي، وضعت السماعة، وأنا أرتعش من الخوف. تكرّر الرنين ولم أرد، فصلتُ الهاتف، وأحضرت سكينًا قوية من المطبخ، وضعتها إلى جانبي، وجلست أنتظر المعركة. طلع النهار، ولم يظهر الجاني. سألتُ صديقاتي، إن كن عشّن حدثًا مشابهًا، أو كانتْ إحداهن هي من وضعت لي الشريط، ونفيّن. مضتْ قرابة

عشرين سنة، وأنا لا أزال أذكر صوت قاتلي، وأتساءل: هل كان مزحة سمجة، أم تهديدًا بالفعل؟.

***

زارتني أمي وأنا في قمة إحساسي بالفراغ واليأس، حدثتها عن شقائي وشقاء أختي، وطلبتُ منها أن تشتري بيتًا صغيرًا يؤوينا في دمشق، فهي الوحيدة بيننا من تجيد جمع المال. وافقتْ، واشترتْ حشّوة صغيرة على الطابق الأرضي، وعلى العظم في منطقة "جرمانا"، سجلَتها باسمي واسم أختي، واحتفظتْ لنفسها بحق الانتفاع مدى الحياة. سافرتْ إلى تونس، وتركتْ لي مهمة الإشراف على الإكساء، ورحتُ انتظر بفارغ الصبر عودتي إلى العاصمة. في تلك الأثناء تلقيّتُ اتصالًا مباغتًا من زميل لي في كلية الصحافة بصوفيا، لم أره منذ خمسة أعوام.

صوته متوقد، وحديثي بارد وحذر، أعلم أنه يكن لي الود، لكنه بعثي، وتوجستُ، كيف حصل على رقم هاتفي، وماذا يريد؟ "علمتُ من أحد الأصدقاء أنكِ في سوريا، وأخذتُ رقمكِ منه" قال، وكأنه يسمع منولوجي الداخلي، وكانت مكالمته الأولى قصيرة ومقتضبة.

في المكالمات الأخرى استرسلنا في الحديث عن ذكريات الجامعة، ثم عن عمله وعطالتي عن العمل، واستفزني حين اتهمني بالضعف والاستسلام للواقع، قال: دعيكِ من صحف الدولة "التعّبانة"، ثمة دوريات عربية هامة، بإمكانك أن تنشري فيها ما تريدين، قلتُ: جربتُ، ولم أفلح. أبدى استعداده لمساعدتي، ورجاني أن أبعث له

شيئًا من كتاباتي، كي ينشره في المجلة السورية الشهرية التي تصدر في لبنان، ويدير مكتبها في دمشق.

فردتُ أوراقي، أمسكت قلمي، وكتبت عن "كومبارس" أحدث فيلم سوري، شاهدته منذ فترة قريبة، ومنعته الرقابة بعد عرضه الأول. طويت مقالتي وأرسلتها له بالبريد، ومكثت أنتظر الرد والكثير من الوساوس تثقل رأسي: هل تسرعت، هل الموضوع الذي كتبته يستحق النشر، وهل نشره سوف يسبب لي المساءلات؟ في حمأة قلقي، جاءني صوته هادئًا، مقالتي رائعة وفي طريقها إلى النشر، وهو ينتظر مني المزيد. لم أصدقه أول الأمر، لكن حين أرسل لي المجلة بعد أسبوع وفي قلبها مادتي وألف ليرة سورية، كانت أول مكافأة قبضتها، طرتُ من فرحتي، وجبتُ شوارع مدينتي الصغيرة كلها، ثم دعوتُ جدَّتي التي كانت في ضيافتي إلى الغداء.

"أنا في اللاذقية، وأودُ أن أراكِ" هتفَ لي صديقي في الصباح، وأسرعتُ للقائه، وحين نظرت إليه كنت كمن ينظر إلى ملاك الرحمة، ممتنة له، وسعيدة به، لم انتبه إلى الشبق الذي يطل من عينيّه، ظننته الحب يفتح قلبي من جديد. أمام البحر جلسنا وتسامرنا، وأمامي شتم البعث والسلطة الحاكمة. لم أجرؤ على مجاراته، اكتفيت بقولي، لا أختلف مع مبادئ البعث، لكني ضد كل فاسد يخرقها، ولم أكذب، كنت أؤمن بالوحدة والحرية والاشتراكية، وأثق أن ثمة بعثيون شرفاء، صديقي واحد منهم.

انقضى النهار، نامت الشمس، انتصف الليل، ولم نشعر، أحاديثنا لا تنتهي، وصوت ضحكنا يصم الآذان. مشاريعه كثيرة، ينوي إصدار جريدة من بيروت، ويريدني أن أكون رئيسة تحريرها، ويقسم على طاعتي. يعدني بعد انتقالي إلى دمشق أني سأدرِّس في الجامعة، ويدعوني لقضاء عطلتي معه في بلغاريا. وحين أدركنا الوقت، وهرعنا مسرعيّن إلى سيارته، فتح لي الباب، وقال: قودي، قلتُ: لا أعرف، قال: تعلَّمي، أعطاني الإرشادات ثم المفتاح، أدرته وأقلعّتُ. لم أشعر بالخوف، وهو يرمقني بود، يضحك ويقول: كأن أمكِ ولدتكِ خلف المقّود، لكني وقعت في مطبّ كاد أن يودي برأسه.

صفحتي البيضاء تنتظرُ الصباح

جاءني زميلي في واحدة من أحلك مراحل بؤسي، امرأة وحيدة في الخامسة والثلاثين، مطلَّقة وعاطلة عن العمل في مجتمع متعدد المشارب والأهواء، لكن الذهنية الذكورية المحافظة تحكم حياته العامة. مثل ساحر فتح لي كل الأبواب الموصدة في وجهي، عاملني بنبل وسخاء، واستفاض بتقديره لعقلي الحر وسيرتي وتاريخ عائلتي، أشعرني أني ملكة قلبه، وطلب مني الزواج. وثقتُ به، وتيقنّت أن بلدي بألف خير، وأن كل ما مررت به من كوابيس خلال ثلاثة أعوام، لم يكن سوى سوء طالع عابر وسوء تكيُّف وتدبير من قِبلي.

زميلي كاتب متحرر على أبواب الطلاق من زوجته، يكبرني بعاميّن، ويعشق مثلي التسكع في دروب الحياة. كان واحدًا من أبناء البعث والسلطة الذين ينادون بالانفتاح الاقتصادي، والانفراج السياسي والإصلاح، وكان متحمسًا لعودة "عقولنا المهاجرة" التي يحتاجها الوطن في طريقه إلى التغيير، أو هكذا بدتْ لي الأرضية التي أسست لعلاقتي العميقة به، الأرضية المشتركة ذاتها التي جعلت خبير اقتصادي مثل عصام الزعيم، يرجع إلى سوريا، ويتقلد منصب وزير التخطيط.

مع زميلي العزيز مشيّتُ على زبد البحر، حتى أشرقتْ شمسي، أبحرت إلى جزيرة أرواد، صعدت قلعة حلب، وتجوَّلت في سوقها

المقبي القديم، أدهشني متحف دمشق، وصليتُ في الجامع الأموي، وعلى ضفاف نهر العاصي شربت العرق في مطعم "ديك الجن"، وفي تدمر مسَّني السحر، وأنا أعبر مملكة زنوبيا عند الغروب. معه بلغتُ أعلى مراتب العشق، واكتشفتُ أني وُلدت في أجمل وطن.

كانت صلاته واسعة في كل مكان، وكان أخوه وزيرًا، ولم يتلكأ عن تسخير كل علاقاته لخدمتي، وما إن انتقلتُ إلى العاصمة بعد عدة شهور من هاتفه الأول لي، حتى استطاع أن يحقق كل أمنياتي في العمل داخل دوائر الدولة، وإن كانت البداية بلا عقود توظيف، والأجر بالقطعة وعلى الساعة. بعدها انسحب من حياتي بهدوء وبالتدريج، وسافر إلى بلغاريا لينهي إجراءات طلاقه ويعود. اشتقتُ إليه كثيرًا، لكن مشاغلي الكثيرة خففتْ من لوعتي.

قبل سفره وقبيل انتقالي من اللاذقية، عرَّفني زميلي على شخص متنفذ في جريدة "البعث"، عاملني الرجل باحترام شديد، ودعاني إلى الكتابة في المنبر بكل دماثة. بدأت بحوار مع الفنان التشكيلي نزار صابور، ثم صرتُ أجلب له أربع مقالات في الشهر، وكانت مفاجأتي سارة، أنه لم يتأخر عن نشر أي منها، ولم يحذف أية كلمة مما كتبت، مع أني كنت أنتقد، وأتابع المثقفين المصنّفين في خانة المعارضة.

كان يشجعني، وينقل لي إعجاب فريق القسم الثقافي بقلمي، لكن الحسرة كانت تخنقني أول الشهر، حين لا تتعدى مكافأتي على المقالة الواحدة المئة وثمانين ليرة سورية (أقل من أربعة دولارات) ثم

صعقتني الصدمة، حين طلب مني أن أكتب عن منجزات الحركة التصحيحية بمناسبة عيدها السادس والعشرين، قلت: "أنا لا أفقه بالسياسة، ولا أكتب فيها"، أجابني: "حاولي، حتى يصبح موقفي قويًا، وأطلبك للتوظيف عندنا". لم أحاول، ولم أكتب لـ"البعث" بعد ذاك اليوم.

في أحد مطاعم حلب التقينا بصديقه، مندوب مجلة "نغم" الفنية الملونة، وبينما كنا نتسامر ونحتسي البيرة، كتب زميلي ورقة تكليفي بالعمل في مكتب المجلة بدمشق لقاء خمسة آلاف ليرة بالشهر، ووقَّع الورقة المندوب، وحين اتصلت بالمكتب، أرسلني المدير لتغطية مهرجان دمشق السينمائي، ثم عملت معه لشهرين أو أكثر، ولم أتقاضَ أجري، فتركت الـ"نغم"، بعد أن تبيَّن لي أن صاحبها مفلس، ولن يدفع قرشًا واحدًا لأي من العاملين لديه. لكني بمشورة زميلي العزيز ودعمه، استفدتُ من ورقة التكليف بالتسجيل في اتحاد الصحفيين السوريين، والحصول على استثناء لتركيب هاتف في منزلي، خلال شهر وبالرسم الفعلي، في الوقت الذي كان فيه طلب الخط الهاتفي يستغرق سنوات من الانتظار، أو أضعاف رسمه، لو تقدمتُ به بصفتي مواطنة عادية.

مع أخيه الوزير ذهبت إلى كلية الآداب في دمشق، وقابلت عميدة قسم الإعلام. استقبلتنا بابتسامة عريضة، وأعطتني ساعة تدريس في الأسبوع، ووعدتني بالأكثر في الفصول القادمة. قبل درسي

الأول ذهبت إليها أستوضح بعض الأمور، لم أرَ ابتسامتها، ولم تعرني أي انتباه.

اشتريتُ كتاب "مناهج البحث العلمي" المكلَّفة بتدرسيه، قرأتُ ولم أفهم الكثير، كانت المعلومات قديمة، واللغة غير واضحة، وعلى الأرجح هي ترجمة رديئة لكتاب صادر باللغة الأجنبية. بدأتُ بدراسة الموضوع، وبحثت عن مصادر لترميم ثغراته، فتشتُ عن صفي في الحرم الجامعي الكبير، واهتديتُ إليه قبل عشر دقائق من موعد الدرس، وأمام الباب وقفتُ بجينزي أدخن. حسبني طلابي زميلتهم في الدراسة، وأخذوا يغازلوني، ثم ندموا على فعلتهم بعد أن قُرع الجرس، وعلموا أني الدكتورة التي سوف تقوم بتدريسهم.

في الساعة الأولى قدمتُ نفسي لطلابي الذين يربون على الخمسين وأغلبهم من الذكور، تعرفتُ على أسمائهم، وتمنيت عليهم أن نصبح أصدقاء مع حفظ الاحترام بيننا. شرحتُ لهم أسلوبي الذي يعتمد على التفاعل لا على التلقين، وأوضحت أن الحضور عندي ليس قسّريًا، وطلبت أن يخرجوا أوراقهم وأقلامهم، ويكتبوا لماذا اختاروا دراسة الصحافة؟ كانوا ينظرون إليَّ غير مصدقين، بعضهم طالب بتلخيص الدروس وإملائها عليهم بدلًا من شرحها، وبعضهم اعترض على الحرية الخارجة عن العرف الجامعي، وحاول الإساءة إليها، ولا أدري كيف ضبطهم جميعًا، لكني فُوجئت في نهاية الدرس، أن عددًا ضئيلًا منهم، استطاع أن يجيب عن سؤالي حول

دوافعهم لاختيار الصحافة، وأن العميدة قبل درسي الثاني، أرسلت من يخبرني بلزوم الدوام وتسجيل الغياب في كل حصة.

أثناء الفصل الأول اكتشفتُ أن التدريس ليس مهنتي المفضلة، وكرهتُ الإهمال وسوء الإدارة داخل الجامعة، كرهت الرطوبة وروائح المجارير التي تفوح من القاعات، ولم يعجبني الذين صادفتهم من أعضاء الهيئة التدريسية. كنت معجبة بطراز العمارة من الخارج، وأسعدني التدخين على مقاعد الحديقة الفسيحة والنظر إلى أشجارها العالية.

اعتدتُ على طلابي، واعتادوا عليّ، تحسنتْ مشاركتهم، وتنازلتُ عند رغبتهم في تلخيص الدروس، وبتنا نلتقي بالمصادفة في المقصف ونتسامر، وبعد أن تمنيتُ لهم النجاح في ساعتي الأخيرة، وهممتُ بالانصراف، انزوى بي أحدهم، وقال بنبرة يعوزها التهذيب: "صديقي يعمل في القصر الجمهوري، لم يحضر أبدًا، ويريد أن يجتاز الامتحان"، قلت: "قليدرسْ" مد لي بطاقة عناوين صديقه، وقال: "اتصلي به، يستطيع أن يحل مشاكلكِ". أخذت البطاقة، لا لأتصل، بل كي لا أنسى اسمه ما حييت. كان إحساسي بإهانة العلم والشهادة الجامعية أكبر مما أطيق، وتوجهت من فوري إلى الإدارة، حتى أقبض أتعابي، وأُعفي نفسي من التدريس. كانت العميدة غائبة، واتضح لي أن الساعة بأربعين ليرة، ما يعني أن مجموع ما سأحصل عليه لن يبلغ العشرة دولارات. تخليّتُ عن الكنز الثمين ومضيت، لكن المصادفات شاءت بعد عدة أعوام، أن يتناهى

إلى سمعي، أن خادم القصر أكمل دراسته بنجاح، ونال شهادة الدكتوراه.

عرفتُ من أين يأتي الفساد، ويستشري في مؤسسات الحكومة، لمستُ بأم عني كيف يجري تقزيم الكفاءات، وتيقنتُ أن شرط الوظيفة الأول والأخير، هو الولاء الأعمى لسيد الأبدية ومن يمثله على الأرض، ولم أكد أنهي شهري الرابع، حتى غادرتُ كل الأمكنة التي فتحها لي زميلي بعصاه السحرية، وتأكدت أن لا طاقة لي على العمل ضمن منظومة "عبادة الذات"، وإن تقلدتُ منصب رئاسة الوزراء أو مستشار الرئيس. حمدتُ الله كثيرًا، أني لم أحظَ بفرصة التعيين في ملاك الدولة، وحمدته أكثر بعد شهريّن، حين علمت بمحض المصادفة، أن حبيبي عاد إلى عشه الزوجي، واستقر في صوفيا، وأبرم عقدًا لترجمة قصائد إحدى الشاعرات الشهيرات إلى البلغارية، وقبض أتعابه بسخاء.

قبل ذلك كنت شققتُ طريقي إلى مخيَّم اليرموك، حيث يقطن أحبتي الفلسطينيون، وبدأتُ أنشر بلا مقابل في صحيفة "الحرية" اليومية، التابعة للجبهة الديمقراطية، ثم أضحت مقالتي بألف ليرة في مجلة "الهدف" الشهرية، التابعة للجبهة الشعبية. وبعد عام بدأ اسمي يظهر في دمشق، وصار مدراء المكاتب الصحفية، هم الذين يتعرفون إلي، ويطلبون مني الكتابة لصالحهم، لكني لم أقبض إلاّ ما ندر كامل مستحقاتي، كان القسط الأعظم منها يدخل جيوب المدراء من دون علمي.

كان العمل الصحفي في ذلك الحين دورة شاقة ومعقدة، لمن يعمل مثلي من خارج المؤسسات، كانت سوريا قد تعرفتْ لتوها على أجهزة الكومبيوتر، ولم تتصل بخدمة الإنترنت بعد، وكان اقتناء الفاكس حكرًا على المكاتب المرخَّصة، ويتطلب موافقة الأمن. كنت دومًا برفقة كاميرتي الروسية الثقيلة الـ"زينت"، أشتري إحدى الصحف الرسمية، لأعرف ما الذي يجري على الساحة الثقافية، أحضرُ الفعاليات وأصوِّرها، أترك الشريط في الاستوديو للتحميض، أكتب مقالتي في البيت، أحملها لصفها على الكومبيوتر عند خبير مأجور، أنسخها، أجلب الصور، وأتجه إلى المكتب الصحفي لتسليم مغلفي الكبير، أو إلى البريد لإرساله مضمونًا وبالسرعة القصوى إلى جهة النشر. كانت المسافات متباعدة، ولم تكن لديَّ سيارة لتسهيل تنقلاتي ولا حتى أجرة ركوب التاكسي.

أواسط عام 1997 تفرغتُ لمكتب "الكفاح العربي"، حين طلبني براتب خمسة آلاف ليرة سورية، وبصفتي مراسلة الصفحة الثقافية، في الصحيفة اللبنانية اليومية، الأكثر انتشارًا وشهرة في سوريا ذاك الحين. وبات اسمي يظهر إلى جانب أهم الكتاب السوريين: محمد الماغوط، ميشيل كيلو، ممدوح عدوان، محمد كنعان، عادل محمود، نزيه أبو عفش.

كان المكتب يحتل جناحًا أنيقًا في فندق "برج الفردوس" وسط العاصمة، وكان ملتقى النخبة المثقفة، وكانت تلك هي فترتي الذهبية. أحسست أني كسرتُ الحصار بصبري وإصراري أن أحترم

أخلاق مهنتي، ولا أغدو بوقًا من أبواق النظام، وراتبي المنتظم منحني الاحساس بالاستقرار، وانطلقت مثل "البلّدوزر" من نشاط ثقافي لآخر. وثق بي مديري الشاعر سهيل إبراهيم، وقدَّر جهدي، وعاملني بنبل لن أنساه، ولحسن حظي تمتعتُ بالدعم المعنوي للمثقفين المعارضين، وحظيتُ على احترام آل الحسيني أصحاب "الكفاح العربي"، وهذا ما أبقاني أعمل معهم حتى اندلاع الثورة السورية، ووقوفهم إلى صف الرئيس. حينها غادرتهم بإرادتي من دون أن أتلقى أي تعويض عن أربعة عشر عامًا قضيتها في الخدمة.

ما إن اتصلت سوريا بالشبكة العنكبوتية، وباتت الخدمة متاحة للإعلاميين، حتى تقدمتُ بطلب قرض "شراء كمبيوتر" إلى اتحاد الصحفيين، وكفلني مديري. حصلت على القرض، واقتنيّتُ جهازي الأول موصولًا بالطابعة النفاثة والماسح الضوئي. أخذت دروسًا خصوصية لتعلُّم مبادئ الويندوز والورد، وتعلمتُ نسخ الصور وتعديلها. اشتركت بخدمة الإنترنت، وفتحت بريدي الإلكتروني، ورحت أبحر بين مواقع الصحف العربية، وأراسلها من دون الحاجة إلى مكاتب أو وسطاء، أحسستُ أن العالم في متناول يديّ، وأني أدير مكتبي الخاص، ولأول مرة في تاريخ حياتي المهنية العتيدة، قبل الصحافة ومن بعدها، شعرت بالسيولة النقدية تدغدغ يديّ. وصل متوسط دخلي الشهري إلى أربعمئة دولار، وكان المبلغ يفوق

ثلاثة أضعاف ما يقبضه أغلب زملائي، أو أي موظف دولة برتبة متقدمة.

عاد زميلي من بلغاريا وأنا في أوج نشاطي، وأخذ يلاحقني. التقيته مرتيّن بموعد ومرات كثيرة بالمصادفات، وفي كل مرة كان يغازلني، ويعرض خدماته عليّ، وكنت أعتذر بلطف واستحياء، لأني لا أزال أحمل له في قلبي العرفان بالجميل، حتى اتصل بي مرة وقال: "بدي منك خدمة"، "أنتَ بتمون"، "اكتبي لمجلتي عن منجزات الحركة التصحيحية". وقف شعر رأسي وقلتُ: "آسفة لا أقترب من السياسة"، قال: "بلا سياسة، قابلي الفنانين، واسأليهم عن مكتسبات الفن في عهد السيد الرئيس"، أجبته "أعتذر مشغولة جدًا"، قال "سأدفع لكِ خمسة آلاف ليرة"، "لن أكتب" قلتُ، "عشرة آلاف"، صمتُ، وقال "خمسة عشر ألف ليرة، اتفقنا"، صرخت "أنا لا أبيع قلمي"، ردَّ بغضب شديد: "ليش مين أنتِ حتى ما تبيعي قلمك؟ شو نسيتي، أنا ساويتك؟" ثم شتمني، وشتم عائلتي فردًا فردًا، سمعته حتى النهاية، أغلقتُ الهاتف، وفصلتُ الخط.

لم يكن زميلي وحده من خدعني وأساء إليَّ بين من عرفتهم من الصحفيين في مهنة اخترقها الوصوليون، وسيّطر على مداخلها المخبرون، وكنت تعلمتُ أن أعبر المطبات بأمان، وأحيانًا كنتُ أشعر أني أرنب يحتال لقضم الجزرة، وتجنب العصي التي تطارده، وحين تعبت من المعارك التافهة، أدرتُ ظهري للجميع، واكتفيت بمتابعاتي الميدانية وكتابتي.

...

في الليل أَخرجُ من الأوراق، أَدخلُ عزلتي، امرأة ضاعت لآلئها. أُجالسُ الصمت، أَرّشفُ مرارتي، أُقلّبُ الصور، أَرقبُ شموعي تذوي دمعة، دمعة... وحين يطلبني النعاس، أتكوَّر على تعبي، صفحة بيضاء، تنتظر الصباح.

صُوَرنا الماكرة وعبورنا الخفيف

كنتُ واحدة من الصحافيين السوريين الأوائل، الذين ارتبطوا بشبكة الإنترنت، فور إتاحتها للعموم في بداية عام 2000، وصرت أقضي ساعة الصباح الأولى بتصفّح مواقع الدوريات العربية، ثم أفتح بريدي، وأجده مليئًا بالدعوات والرسائل من كل البلدان، بعد أن وزعته على المنابر الثقافية التي أرتادها، والصحف التي أراسلها، والناس الذين أعرفهم، وربما كنت الأولى من بين أقراني التي أجرت حوارات مع كتَّاب عرب وأجانب عبر البريد الإلكتروني، بدأتها مع الباحث البريطاني كيت وايتلام بمساعدة ترجمة الناشر زياد منى، لكني بالرغم من هذه الريادة المتواضعة، أخجل حين أذكر أني لم أسمع بالفيسبوك حتى أوائل عام 2009.

كان اشتراكي بالخدمة عن طريق "الجمعية السورية للمعلوماتية"، وكانت المحادثات ممنوعة، ومواقع التواصل الاجتماعي محجوبة، ومعها كل الدوريات العالمية والعربية التي تنتقد النظام. استعضت عن الأخبار المحجوبة بقناتيّ "الجزيرة" والـ "بي بي سي"، أما أمر التعارف والدردشة على الشبكة العنكبوتية فلم أكترث به على الإطلاق، طالما أنني مشغولة طوال الوقت، ومهنتي تتيح لي فرص اللقاء الحي واليومي مع كل من أرغب، ومن لا أرغب بهم. غير أنه مع مرور الزمن وأثناء جلساتي مع أصدقائي المثقفين، بدأت تتناهى

إلى سمعي معلومات مبهمة عن تجمُّعات وأنشطة، لا أدري متى تحدث، وأين؟.

في البدء اعتقدت أن الأمر يتعلق بالدوريات المحجوبة، وبدأت أستفسر عن طرائق كسر الحجب. لم يكن الأمر بالسهولة والعلنية التي تبادرت إلى ذهني، كان فك الحصار يتم بسرّية تامة، ويعاقب عليه الجاني عند اكتشافه، ولا أحد ممن يبحرون في المحجوب على استعداد للإدلاء بمعلوماته. بعد عامين من المتابعة والتدقيق والتمحيص، علمتُ بوجود منافذ وبرامج مجانية لهذا الغرض، واستخدمت "الأولترا سيرف" وموقع "بريكين إفري سينغ"، ونجحت لفترة قصيرة في الدخول إلى "النهار" و"المستقبل"، و"القدس العربي" لكني لم أعثر على ضالتي، وامتلأ كومبيوتري بالفيروسات والديدان والبرامج الضارة، وكانت الحكومة السورية قادرة دومًا على إفشال مخططاتي وتعطيل منافذ الكسر وبرامجه، فاستغنيتُ عن هذه اللوثة، وعدتُ إلى إبحاري الآمن ومواقعي المسموحة.

عاودتني اللوثة بعد قراءتي عن الفيسبوك في نشرة "كلنا شركاء" التي صارت تصلني عبر بريدي الإلكتروني، وبعد سماعي باعتقال المدوِّنة طلّ الملوحي. أيقنت أن ثمة قنوات وأساليب للاتصال وتبادل الأخبار والآراء، أجهلها تمامًا، وعدّتُ إلى الكواسر، حاولت كثيرًا، وفشلتُ في الدخول إلى أكثر مواقع التواصل الاجتماعي شهرة، مع أني اكتشفت أن كل من أعرفهم، كانوا قادرين على الدخول بطرقهم الخاصة التي لم يفشوها أبدًا أمامي.

صار الدخول إلى موقع التواصل المحجوب هاجسي وحلمي، سيما بعد اندلاع الثورة في تونس، ولا أنسى فرحتي في تلك الليلة العصماء من أوائل عام 2011، حين تُوجت محاولاتي بالنصر، ودخلّتُ "الفيسبوك" كمن يدخل أبواب الجنة، كانت الصفحة الرئيسية تُرحِّب بي، وتدعوني للتسجيل، قرأت الإرشادات وطبقتها، وانفتحت صفحتي الشخصية، لكنها صَدمتني بأنها خالية تمامًا، وتقع على عاتقي مسؤولية ملأها بمعلوماتي وأصدقائي وأخباري. كانت الشمس قد أشرقتْ في غرفتي، وقررتُ أن آخذ قسطًا من الراحة، ومن ثمة أفكر كيف سأتدبر أمر صفحتي؟ وحين استيقظتُ من غفوتي، واستمعت إلى نشرة الأخبار، أدركتُ أن الحكومة السورية، هي من ألغت الحجب، وليست شطارتي.

فنتشتُ في ألبومي عن صورة جديدة لي، ولم أعثر، فأنا ألتقط وجوه الآخرين، ولا أصوِّر نفسي، وتحايلت على المربع الفارغ بوضع صورتي التي تصغرني بسبع سنين. طلبتُ صداقة زميلي الشاب يامن، وانهالت عليّ طلبات الصداقة من الشباب والشابات، وكانت المصادفات جمعتني بأغلبهم على أرض الواقع. ومع انطلاق الثورة السورية انفتحت صفحتي على مجايليّ من الكتاب والفنانين والنشطاء، وبت لا أرضى بغير صداقة الأحرار، وأسعدني أن معظم معارفي السابقين، ومن كتبت عنهم من المعارضين، تصدَّروا لوائح الشرف التي خطَّها الثوّار على باب الحرية. حينها شعرت بالنشوة والفخر لأول مرة في تاريخي المهني.

كنت أجهل كل شيء عن قوانين هذا العالم الافتراضي وأخلاقياته، لا أجيد إدارة صفحتي ولا التواصل بمن عليها، لا أدرك أهمية تسجيل الإعجاب، ولا التعليق على البوستات أو الرد على التعليقات، جربتُ كتابة البوستات مثل اغلب أصدقائي، وفشلت، استعضت عنها بمشاركتهم منشوراتهم، وكتابة مقتطفات من قراءاتي، تعكس موقفي من الثورة، كقول المسيح "من قال سلامًا للظالم، فقد اشترك معه بالظلم"، أو جملة شيلر "كن مخلصًا لأحلام الشباب".

كنتُ أرتبك حين أدخل صفحتي، وكأن الجميع يحدقون بي، وكنت أشعر بالضيق، حين تقفز نافذة المحادثة أمامي، ماذا يريد، وماذا أقول؟ وكنت أختصر دومًا بالدعوة إلى التعارف الحي، حيث العين مغرفة الكلام، وبإمكاني قراءة دواخل الآخرين، ولا أدري، بماذا كان يفكر أولئك الأصدقاء الذين بادرت ودعوتهم إلى لقائي؟.

إرباكاتي وإخفاقاتي لم تمنعني من الافتتان بإمكانات هذا الفضاء الوهمي، وصرتُ أقضي ساعتين وأكثر في قراءة ما ينشره أصدقائي. لم يعد مهمًا البحث عن كواسر لفتح المواقع المغلقة، كل المقالات الهامة والأحداث والأخبار والشرائط المصوَّرة والأغاني، أجدها بلا جهد على صفحتي الرئيسة. وحدث أني مع بداية الثورة المصرية، استطلعت رأي بعض المثقفين السوريين الشباب بـ"الربيع العربي"، وأرسلت تحقيقي إلى "الكفاح العربي" ولم يُنشر. نشرته على جداري مرفقًا باعتذاري ممن حاورتهم، وفُوجئت أن التحقيق

المرفوض، انتقل إلى موقع "كلنا شركاء"، وشاركني به عدد من أصدقائي، وأحدث أكبر صدى عرفته كتاباتي. حينها شعرت أن "الفيسبوك" هو الإعجاز البشري بعينه الذي حرمتنا منه سياسة الممانعة.

بدأت أطيلُ الجلوس أمام شاشتي، أتقصى أخبار الثورة السورية بحبور لم أعرفه في حياتي، ثم جاءني "بيان الحليب" ووقعته، وبعد حين وصلتني أول رسالة تهديد، قرأتها مليًا، وأنا أتصبب عرقا من الخوف، الذي حسبتني كسرته مرة وإلى الأبد، حذفتُ الرسالة، ولذت بصمتي، وعلى صفحتي بكيت اعتقال أصدقائي واحدًا تلو الآخر، بعضهم لم تطل إقامته، وبعضهم قضى تحت التعذيب، وآخرون لا يزالون في السجن.

لم تمضِ أربعة شهور على الثورة، حتى تقاسم الشهداء صفحتي، وصارت أشبه بنعوة دائمة وجنازة لا تنتهي. بدأ الفتح العظيم بجسد حمزة الخطيب وحنجرة القاشوش، ثم بكيتُ مقتل صديقيّ الشابيّن تامر العوَّام وباسل شحادة، وحسب الارشادات الاحترازية، كان عليّ أن ألغي صداقة كل من استشهد، أو وقع في القبضة الأمنية، ولم يمضِ العام، حتى كنت مضطرة إلى إلغاء قرابة المئة من أصدقائي، وكان معظم من بقي على الصفحة فر بجلده، وغادر الحدود السورية.

صرتُ أتجنب دخول صفحتي، أخشى أخبارها، ونوبات الذعر والبكاء التي تعتريني، وباعد من زياراتي لها بطء شبكة الاتصالات

وأعطالها وانقطاع التيار الكهربائي لمدد طويلة. بت أدخلها مرة كل شهر أو شهرين، وبعد عامين أغلقتها قبيل نزوحي إلى لبنان بزمن قصير.

بعد أن هدأ روعي في بيروت، فتحتُ صفحتي الثانية على الفيسبوك، ومرت شهور ولم أدخلها، ثم وضعت علم الثورة على الغلاف، وصورتي الجديدة مع سيجارتي في الإطار، ولم ينقضِ وقت طويل، حتى امتلأت الصفحة بصداقات من طلبتهم وطلبوني، ومن جديد عدت أشعر بالإحراج، لا أزال أجهل أدبيات هذا العالم وكيفية التحرك فيه، وبالتدريج بدأت أتعلم فن البوست، وأستسيغ الدردشة مع معارفي السوريين، القريبين من قلبي، البعدين عن عيني.

وأنا أقرأ أصدقائي، وأتابع أخبار الثورة باهتمام، لاحظتُ أن ليس كل ما يُنشر بريء، ويعكس الحقيقة، كما كنت أعتقد. بدأت أنتبه أن بعض الوجوه تغمرني بالغبطة، وتجعلني أبتسم وهي تطلُّ عليَّ، وأن تسجيل الإعجاب بعد كتابة البوست مباشرة، قد يكون بمثابة التحية، وفي بعض الأحيان يكتسي مذاق القبلة على الخد أو فوق الجبين، ثم ضبطتُ نفسي متلبسة بميلها الزائد إلى أحد الأصدقاء، وأمسكتها مرارًا تفتح صفحته، وتتلصص عليه، وأحيانًا تشعر بالغيرة من صديقاته المقرَّبات، زجرتها وأعدتها إلى الطريق القويم، أيُعقل بعد كل هذا العمر المديد، أن تقعي في هوى صورة؟ ولم أكن

وحدي، كل الفسابكة يولعون بالصور، ولا أدري، هل هي العزلة، أم شروخ الروح تحتاج كل هذا الوهم؟.

بكل الأحوال لم أُولع بصفحتي الثانية، ولم أُكثر من زياراتي لها، مرة لغلاء الاتصالات في لبنان، ومرة بسبب انقطاع الكهرباء، وثالثة لأن عدم قدرة الثورة السورية على تحقيق نصرها بعد أربع سنوات، حرمني كل متع الحياة. لكني اكتشفت هذه المرة أن ثمة نجوم ولاعبون وكومبارس من كل الأصناف على الفيسبوك، يصنعهم فن البوست والتعليق عليه. ماذا ننشر في يومياتنا، وكيف ننشره؟ هو صورتنا الافتراضية أمام الآخرين، أو ربما تكون الصورة الأكثر واقعية عنا.

اللغة بكل احتمالاتها وكناياتها واستعاراتها، بكل رِفعَتِها وسقطاتها، هي التي تصوغنا، وترسم ملامحنا. ثمة من يجيد التعبير بالمحكية، ويطلق نكاته الذكية في الفضاء، وآخر يحسن استخدام الفصحى الأنيقة، ويتأمل في أحداث الحياة، وهناك من يتلعثم ويتعثر ويفشل بكل اللغات. البعض ثرثار وصدامي، والبعض حذر وقليل الكلام. هناك من يبتكر جمله الخاصة، وهناك من يسرق جمل الآخرين وأفكارهم، وثمة عبارات تكشف عن رجاحة العقل وسعة الإطلاع، وأخرى عن ضيق الأفق والتعصب المقيت.

ثمة ادعاء مفرط، وتواضع يثير الفضول، بذاءات تستدرج القرف، ودماثة تفتح القلوب، تخفّي يوقظ الريبة، وإشهار يوطِّن الثقة، أحرار وشبيحة وتكفيريون في كل مكان، ومن كل الانتماءات والأديان

والطوائف. "الفيسبوك" معرض فسيح لطبائع البشر، هو نحن بمشاربنا المتعددة وأخلاقنا، مشاعرنا وقناعاتنا، تشابهنا واختلافنا، وَلَعنا بالظهور والاستئثار باهتمام من حولنا. هو صورنا الماكرة، وعبورنا الخفيف على الأرض.

المَسكن غصَّةُ السوريين

في الأربعين من عمري، ومع أجواء الحداد القسّري التي فرضتها وفاة قائد الأبد، انتبهتُ أني لا أملك سوى جهاز الكمبيوتر ومجموعة كبيرة من الكتب والقواميس اشتريتها، أو أُهديت لي كي أكتب عنها، ولاحظت أن كرم عشاقي اقتصر على عبارات الغزل، وفرسان أحلامي أغدقوا عليّ بالخيبات. حينها اتخذتُ قراري المصيري الخطير، أن أغلق بابي على نفسي، وأتفرغ بكليتي للعمل، حتى أشتري منزلًا لي، وكان القرار أقرب إلى المستحيلات منه إلى الواقع بالنظر إلى دخلي المتواضع.

سعيّتُ مثل كلاب الشوارع وراء حلمي، وبعد عاميّن اشتريتُ بيتي الأول بربع مليون (خمسة آلاف دولار) في عشوائيات "جرمانا"، كان على الأرض والعظم، مساحته أقل من أربعين مترًا مربعًا، أشبه بقنّ الدجاج، بارد، رطب، معتم، ويقابل معملًا لقصّ البلاط. عشتُ فيه خمس سنين أكدح بلا راحة، حتى أصلحّتُه وفرشّته، وسددتُ ديوني وقروضي، وأُصبت بالتهاب المفاصل الذي سيلازمني مدى الحياة، لكني استطعت أن أحوِّل داخله إلى أجمل استوديو في المنطقة، وشاءت الظروف أن دخل المنزل في المخطط التنظيمي للبلدية، وبذلك ارتفع سعره إلى ستة أضعاف ما كان عليه.

ضربة الحظ لا تُفوَّتْ، وعرضتُ منزلي فورًا للبيع، وجاءتني الضربة الثانية، حين اقترحتْ أمي أن تستثمره، مقابل أن تشتري لي

بيتًا قريبًا من سكنها الراقي في "مشروع دمَّر"، وامتلكتُ مفاتيح بيتي الثاني بمليونيّن ونصف (خمسة وعشرون ألف دولارًا) في مجمَّع سكني حديث بمنطقة قدّسيا، يفصل بين مرتفع "مساكن الحرس الجمهوري" من العلويين، ومنخفض مساكن السُنّة المحافظين في البلدة القديمة.

بيتي في الدور الرابع تقابله شقتان، وتجاوره الثالثة، وتتبسط أمام بابه الخشبي أرضية واسعة من الرخام. مساحته الداخلية أكثر من سبعين مترًا مربعًا، كسّوته جيدة، إطلالته جميلة، تزوره الشمس بانتظام، وتقرع نوافذه الكبيرة حبات المطر. أثثته بما يليق به على مدى سنتيّن، وما إن انتهيتُ بوضع ميِّكف غرفة النوم وتسديد كامل أقساطي، حتى اندلعت الثورة السورية، وشعرت أن كل أحلامي تحققتْ دفعة واحدة.

في مسكني الجديد انتظرتُ النصر، أراقب التظاهرات في ساحة قدّسيا القديمة، إضراب بعض المحال التجارية في شارعها العام، وأسمع أخبار تغلغل الثوّار وتصفية "العوايّنية". لم يُخيّل لي، أن قمع الثورة سيصل حد تدمير البلد فوق رؤوسنا، وأن المجتمع الدولي سيتركنا عزّلًا نواجه مصيرنا الأسود، ولم أتخيل أن مفارز الأمن ستنتشر على مداخل منطقتي وتغلقها، وأن التجمُّع السكني الحديث، سيغدو خط التماس بين حرس النظام وجند الحر.

لا أنسَ ذاك المساء الأغبر، حين هاتفتني ابنة خالي، وسألتني مستهجنة "شو عم تساوي ببيتك؟ رح تعلق بعد شوي". وضعتُ

السماعة من يدي، أزحت الستارة، كانت أنوار الجيران مطفئة ونوافذهم موصدة. ولا أدري كيف استغرقتُ وأنا أكتب ذاكرتي عن الخوف، حتى أني لم أسمع صوت المآذن تنادي لخروج الأهالي من قدسيا؟!.

اتصلتُ بسائق تاكسي أثق به، قال: جميع الطرق مغلقة والتجوال ممنوع، "بس سمحوا بالحركة بجي". خرجتُ إلى شرفتي أستطلع الشارع، لمحني جندي نظامي، وأطلق النار في الهواء. دخلتُ هلعة، ارتديتُ ملابسي على عجل، وضعت حاجياتي في حقيبة صغيرة، وركنتها عند الباب، أنزلت الأباجور، حذفتُ ذاكرتي من حاسبي وأغلقته، أطفأتُ الأنوار عدا المدخل، أدرت التلفزيون، كتمتُ صوته، وجلست أقرأ شريط "الجزيرة" وأدخن.

انقطع تيار الكهرباء في غير موعده، وهذا يعني أن المداهمات الأمنية بدأت، بعدها أخذ القصف يدوّي في أذنيَّ، قريب لدرجة أن الأرض تهتز من تحتي، أو أنني أهتز من ذعري. تلمّستْ يدي العتمة وقادتني إلى بابي، تكومتُ على الأرض ساعات قرب حقيبتي، ولم تهدأ راجمات الصواريخ والطائرات. لم تكن المرة الأولى التي تُقصف فيها قدّسيا، لكنها كانت بداية معركة تكسير العظام.

كل صور الاغتصاب والتعذيب جالتْ في رأسي، أُصبتُ بالإسهال والغثيان والنزيف، وكنت أرتعد خوفًا حتى من الحركة والأصوات التي تصدر عني. أحسسّتُ أن القتلى يسقطون في قلبي، الجنازات تمشي على جسدي. بكيتُ الأمهات السوريات، وشكرت الله أني لم

أنجب. هرمتُ مئة عام، ولا أدري متى توقف إطلاق النار مؤقتًا، وخرجت سالمة إلى أمي.

رجعتُ إلى قدّسيا أثناء الهدنة، الشارع العام في البلدة القديمة أضحى أثرًا على عين، الحديقة صارتْ مقبرة جماعية، أبنية مهدَّمة وأخرى محروقة ومثقوبة بالرصاص. صعدتُ أدراج بنايتي المهجورة، فتحت منزلي ودخلته لآخر مرة، لم يصبه الأذى، ولم يُنهب بعد، صورّته بنقّالي، ألقيت نظرة الوداع على ركن الكتابة، سرير الوحدة، تركت حياتي عند جلادي، ونزحتُ مثل ملايين السوريين، لا أملك غير مفاتيح غصَّتي.

دراما الالتباس

"السحر، أن تحدقَ في عيون بيروت" قلت لنفسي، وأنا أعبرُ مع الشريك أزقة "برج حمود" بحثاً عن الأمكنة المحددة في خريطة الشقق المجهولة. كانت الجولة الغامضة في حي الأرمن هي أولى فعاليات مهرجان "أشغال داخلية 6"، وقبل ذلك كانت الشروح التي أجابتْ عن أسئلتي قد زادت تصوراتي التباسًا. قررتُ أن أدخل التجربة بلا توقعات، وكان الغموض هو دفق الإثارة التي حركتني، ونقلتني من مشغل للأحذية إلى ما يشبه علبة ليل، من بيت ممثل إلى بيت فنان مولع بنحت السفن الخشبية، مطعم السمك، دار سينما تعرض مشاهد من أفلام عربية توحي بالشذوذ الجنسي، غرفة مضاءة بالشموع تنتصب في زاويتها عدسة التصوير وأمامي امرأة تسألني باللغة الإنكليزية: كيف أصف نفسي، أي صنف من الرجال يعجبني، وماذا أنتظر من المستقبل...؟ وكان شريكي اللبناني اللطيف يفتح باب الحوار مع المضيفين وأنا أغلقه بالصمت، كنت أصغي إلى دراما ترتجل مفرداتها في الأفق مع كل لقاء.

"دراما الالتباس" بدأت مذ ذهبتُ إلى المؤتمر الصحفي، واستمعت إلى مديرة المهرجان الجميلة، وهي تقول بصوتها الهادئ: "أشغال داخلية هذا العام يقوم على عنوانيّن، الأول "حرتقات"، والثاني "المحاكمة". الحرتقة في اللغة هي المعابثة والفحص والتحايل، وفي الفعل هي معاينة الشيء والعمل عليه إمّا لهوًا وإمّا بقصدٍ هادف،

وفي الصوت هي الأثر والصدى النابع عن ارتطام الأدوات والأشياء إمّا بإيقاع وإمّا بعشوائية، بهذا المعنى كل ممارسة هي "حرتقات" على نحوٍ ما. العنوان الثاني "المحاكمة" نقاربها بسؤال، إذا كانت المحكمة لا تقوم أركانها إلّا بسيادة القانون والمواطنة والفرديّة، فإنّ المواطن الفرد لا يقوم إلّا بحضور سلطة المحاكمة، فأيّهما يسبق الثاني الفرد أم المحاكمة؟ يبدو سؤالنا حرتقة، وفي غياب المحاكمة عندنا تبدو تلك الممارسات الواسعة النطاق في زوايا المدن وعتماتها وزواريبها وأمكنتها الخاصة وحميمياتها هي حرتقات بلا توقّف، ترفع سؤال المحاكمة على نحوٍ فرديّ وخاص ومستمر".

يا إلهي، ماذا أفعل...؟ "الحرتقة والمحاكمة" كل زادي لتغطية مهرجان يشير برنامجه الضخم إلى أنه يستضيف ما يزيد عن تسعين شخصية من لبنان والدول العربية والأجنبية، يستمر قرابة أسبوعين، ويشغل سبعة مراكز ثقافية متباعدة، من "أشكال ألوان" في الجسر الواطي إلى مسرحيّ "المدينة" و"بابل" في الحمرا، ومن "متروبوليس أمبير صوفيل" في الأشرفية إلى "الآرثيوم" و"98 أسبوع" في نواحي مار ميخايل، حيث سوف تُقام حوالي ستين فعالية، تتنوع ما بين عروض الرقص والمسرح، حفلات الموسيقى، معارض فنية، محاضرات، أفلام، إصدارات، جولة "إكس شقق"، جولة "ساحة ستاركو" وحديث عن ما بعد المستقبل، مشاريع فنية تحمل أسماء غريبة من قبيل "راديو أنطق أكتب" "الأربعاء الأسود"،

"عروق بلاستيك"، وبالمناسبة أنا من تسميه مهرجانًا، هم يسمونه "منتدى عن الممارسات الثقافية".

أغلب الضيوف لا أعرفهم، أماكن العرض لا أدري كيف أصلها، قسط كبير من التسميات والشروح الواردة في الكتيِّب حول "الممارسات الثقافية"، كانت تبدو لي كمن يُفسِّر الماء بالماء، وأُصبتُ بالاكتئاب "مهرجان كل الأجناس" لا يشبه أيًا من المهرجانات الكثيرة التي غطيتها في سوريا طوال خمسة عشر عامًا، قضيتها أعمل مراسلة لعدّة دوريات عربية، لا يشبه حتى مهرجان "هاي" الذي حضرته قبل فترة وجيزة في بيروت. واريتُ جهلي وكآبتي بإحكام خلف قناع الصمت، ومضيت أتابع التفاصيل، ومنذ اللقاء الأول بدأتْ الصورة تتضح والأنشطة تروق لي. كان مصدر الالتباس اختلاف التسميات والترجمات، كنت أسمي "المحاضرة الأدائية" قراءة نص أو تموّضع في الفراغ، على سبيل المثال.

المناخ العام أليف، أعضاء هيئة التنظيم والتنسيق والاستقبال، لا يرتدون الزيّ الرسمي أو الشعبي، لا يضعون ربطات العنق، ولا يكترثون لألقاب التفخيم والتبجيل، كذلك الأمر بالنسبة للضيوف والجمهور وهم خليط من عرب وأجانب، شبّان ومسنين، والأنوثة تطغى على الذكورة دومًا في بيروت، جمهور يبدي اهتمامه بالإصغاء وبالمشاركة الفاعلة التي لا تنبع من حب الظهور، بقدر ما تجنح نحو الإضافة إلى رصيد الأفكار والأسئلة التي أُثيرت في سياق المقترح الثقافي، ليس عليكَ أن تجلس متخشّبا طوال الوقت،

بإمكانك أن تسترخي في مقعدك، تقف، تمشي، شرط ألا تزعج الآخرين، أما من لم ترق له الفعالية، فبإمكانه أن ينسحب بهدوء دون تردد أو حرج، انطباعات لم ألحظها في عواصم عربية أخرى كدمشق وتونس، عمّان ودبي، المعرفة هنا تُقاس بالتواضع، والأناقة بالبساطة، شعرت أني في بيتي، والتنوع الكبير في الموضوعات وأدوات المقاربة والعرض كسر لديّ أي إحساس بالملل.

على خلاف كل نُخب الأرض غالبية النخبة اللبنانية تفضل التواصل باللغة الإنكليزية على لغتها الأم، وحين تتكلم العربية، تتحدث باللهجة المحكية المهجَّنة بالمصطلحات الأجنبية، ربما يفسّر ذلك محاولة التملُّص من إرث الرابطة العربية التي تستبطن استبداد منظومتيّ "الفكر القومي والديني". وفي كل الأحوال كان حاجز اللغة في بيروت، يعترضني ويرعبني مثل حاجز الأمن في دمشق، لا يمكنني أن أقطعه بسلام، يشعرني بالعجز، شعور مقيت أسستْ له "مدارس البعث" في أعماق جيلي. مع ذلك إذا أردتُ أن أكون منصفة، فقد بذلت إدارة المهرجان جهدًا ملحوظًا على مستوى الترجمة الصوتية المباشرة، لكني إلى أن انتبهتُ إلى الأمر، كنتُ حضرت عددًا من المحاضرات وجلسات الحوار ولم أفهم شيئًا، وحين انتبهتُ وطلبت السَّماعة السحرية، ربما كنت الوحيدة في القاعة من تضعها على رأسها.

في المحاضرات والقراءات لفتتْ انتباهي محاولة مسرحة الفضاء، شاشات العرض الكبيرة في الخلف، منصة القراءة في الزاوية

الأمامية، الإنارة تضيء وجه المتحدث وتعكس ظلالها على المكان الذي يشغله، بينما يجلس الجمهور في منطقة تميل إلى العتمة، بحيث يتشكل تلقائيًا حيز الفرجة وحيز الاستقبال، وربما كانت واحدة من أكثر المحاضرات إثارة بالنسبة لي، هي "أيوب الذي أحب الرب، ولم ينسَ نفسه" التي ألقتها الأديبة اللبنانية هدى بركات القادمة من باريس، حكت بلغتها العربية الجزلة وصوتها العميق: كيف تحالف الله والشيطان لامتحان إيمان أكثر البشر صلاحًا، كيف خسر أيوب مصدر رزقه، أملاكه، عائلته، جاع، مرض، نام في العراء، وحين أدركَ عجزه عن صد هذه السلطة المطلقة، سكن جلده وبحث في داخله عن أشكال المقاومة، قاوم الألم المُقدَّر عليه بالألم.

وأنا استمع إلى تفاصيل الحكاية، كانت مخيلتي تعبر الحدود، صبر أيوب، يشبه صبر السوريين على عقاب جماعي، لا ذنب لهم فيه، ولا قدرة على رده... لماذا يبتلي الرب عباده الصالحين، ويرضى بمثل هذا العذاب؟! ما مغزى هكذا امتحان من إله يُفترض أنه ملاذ الضعفاء والمحتاجين؟!.

الفنانة حنان حاج علي اقترحت على هدى، أن تشاركها العمل على مسرحة الحكاية، أدهشني الاقتراح بخرقه لحدود التابو الديني، وأدهشني أكثر أنه صدر عن مثقفة محجَّبة، وسوف ألتقي مرة أخرى بحنان بعد انتهاء فيلم "العالم ليس لنا" لمهدي فليفل، كنت أسير وحدي مثقلة بهموم الفلسطينيين، أعبّ لفافتي وأتساءل، كيف أصل

غرفتي في هذا الوقت المتأخر من الليل..؟ اقتربتْ مني، واقترحت أن توصلني، قلتُ: لا داعي، سوف آخذ سرفيس أو تاكسي، قالتْ: أعلم أن في بيروت سرافيس وتكاسي، لكن لن ندعكِ وحيدة في الليل. صعدتُ سيارتها، وفوجئت بوجود شخصيّن آخريّن، سوري وألماني، سوف تقلّهما أيضًا في الطريق إلى بيتها الذي سوف يتضاعف عدة مرات على ما أظن. وليست حنان الوحيدة من تملك هذه الحساسية المرهفة واللطف الآسر، معظم مثقفيّ لبنان الذين التقيتهم يشاطرونها الخصلة الأصيلة ذاتها.

في محاضرة "مئة ألف عزلة" قدّم الباحث طوني شكر مقاربة مثيرة للجدل في واقع "الربيع العربي" بالاعتماد على صفحات التواصل الاجتماعي، الفيسبوك واليوتيوب، شبَّه زمن الثورات بالزمن المسيحاني، زمن اختفاء التناقضات وانتهاك الحدود الفاصلة، اختلاط الحاضر بالماضي، الداخل بالخارج، الأرضي بالسماوي، الرجل بالمرأة، العام بالخاص. يصيح رجل الشارع في ميدان التحرير: "لا مَلكية ولا دينية، بل دولة مدنية" كأنه شعار الثورة الفرنسية "لا عبد ولا سيد". امرأة مُسنّة ترتدي السواد حدادًا على الأمل، وأخرى تحمل كل يوم سلة مليئة بالمانغا، توزعها على عناصر الجيش وتقول: المتظاهر أخوكم لا تقتلوه. شعارات كفرنبل "حتى الموتى يطالبون بإسقاط النظام"، فيديوهات تصوِّر موت النشطاء، الأنهار والبرك السورية التي صبغها الناشطون بالأحمر كناية عن الدماء التي تُراق في ساحات التظاهر السِّلمي، الحماصنة

يتصدرون واجهة الثورة بعد أن كانوا مجالًا للتندُّر، مظاهرات النساء السوريات داخل البيوت... إنه زمن الهدم في انتظار ولادة عالم جديد، يمثله شعار ثوار كفرنبل "يسقط النظام والمعارضة، تسقط الأمة العربية والإسلامية، يسقط مجلس الأمن، يسقط العالم، يسقط كل شيء".

"نحن نحتاج الحب أكثر من أي شيء آخر، هو الذي يخلق الفضاء، من دونه لا يمكننا التعرف على الفراق أو المسافة"، وروى شكر حكاية مختلفة عن إبليس الذي رفض السجود لله، ليس تمردًا بل من شدة الحب، لم يكن بمقدوره أن يزيح نظره عن الحبيب كي يسجد، وحين غضب الرب وأبعده عنه، ظهرت المسافة، تشكل فضاء الماقبل والمابعد، الماضي والحاضر، وصار الحنين.

"ليس ثمة ثورة عفيفة، الثورة ليست عذراء، هي وسخة بالضرورة ودامية. هذه كلمات جميلة أُخذت من سيناريو فيلم قيد الإعداد سألعب دورها فيه" والمقطع من قراءة مروة أرسنيوس لنصها "متى قتلت الدب/ متى صرت جميلة"، فيه تسرد الكاتبة، كيف تعرَّفت إلى جميلة بوحيرد من خلال أعداد مجلة "الهلال" الصادرة في خمسينات القرن العشرين. جميلة أيقونة الثورة الجزائرية التي ناضلتْ من أجل الحرية، حملت السلاح، وقامت بتفجير ملهى ليلي، اعتُقلتْ وعُذبت وحُوكمت على يد الفرنسيين.

يصحبُ السرد أرشيف الصور ومقاطع فيلمية، بينما تتناسل الأفكار، وتتفرع الحكاية باتجاه أيقونات أخرى "تلغي البدلة العسكرية

التصوّر المنزلي لحياة النساء، وتفضي إلى بلورة فئة جديدة، المرأة الحارسة للثورة، مثل حارسات العقيد القذافي، راهبات الثورة ينبغي ان يبقيّن عذارى للتشديد على طهارة الثورة"، والأيقونات يتحوّلن إلى حارسات الديكتاتوريات "حين أدرت محرك غوغول للبحث عن اسم جميلة، رأيت صورًا لها تجمعها ببشار الأسد..جميلة التي كانت فيما مضى بطلة، صارت اليوم معلمًا يأكله العفن، حارسة ديكتاتورية".

"الزمان مكان سائل، والمكان زمان متجمد" مقولة ابن عربي استلهمها الفنان المصري طارق أبو الفتوح لافتتاح معرض "أشغال داخلية6" في الآرثيوم، تجوَّلت في أرجاء المكان، فضاء تشكيلي مركَّب على مبدأ المزج والتداخل بين الفنون والأزمنة والمدن، ثلاثة أجنحة مكونة من غرف وممرات ضيقة تعرض صورًا ضوئية، أفلام فيديو، لوحات تشكيلية، سلايدات، رسوم بالفحم. ورغم انبهاري بتفاصيل التكوين لم أفهم الكثير، سألت عن طارق لأستوضحه، ولم يكن موجودًا، واكتفيت بمعلومات كتيّب المهرجان "يعيد المعرض تمثيل ثلاثة معارض، نُظمت في لحظات فارقة لتحولات سياسية واجتماعية وفنية: معرض السنتين الأول للفنانين العرب في بغداد 1974، بينالي الاسكندرية الأول 1955، معرض الصين/ الفن الطليعي في بكين 1989. لا يهدف المعرض إلى إعادة رسم خارطة الماضي، بل ينشد تقديم أعمال فنية معاصرة في مواجهة خلفيات متداخلة مشحونة بالحراك".

"إسلام الشرع وإسلام الدولة/ دعوى الإحياء وحربها على التنظيم" عنوان دراسة وضاح شرارة التي أصدرتها إدارة المهرجان، وفيها يتناول أوجه الاختلاف بين تياريّ الحداثة والسلفية في إطار الإسلام المعاصر، بالنظر أولًا إلى قوانين إصلاح السلطنة العثمانية التي صدرت بين الأعوام 1839–1856 إثر تعاظم النفوذ الأوروبي والاستعماري في منطقة الشرق الأوسط، والتي شكّلت أول حالة دستورية حضت على ضمان أمن الرعايا والمساواة فيما بينهم، ضمان حرية العبادة وإقامة الشعائر لكافة الأديان، تنظيم الضرائب وجبايتها، وتنظيم الخدمة العسكرية... في مقابل ذلك ظهرت الدعوات السلفية من الأفغاني والبنا ورشيد رضا إلى روح الله خميني وعلي شرعتي، دعوات قامت على فكرة أن الإسلام دين دعوة كلية وعامة تنفي ما عداها، وما عداها ينفيها، الحرب هي ميزان العلاقة الوحيد بالدهريين والعقلانيين والإباحيين الشهوانيين، الإصلاح هو الثبات والرسوخ في الإسلام وفضله، والإحياء هو التجدّد الذي يغرف من معين الأصل".

المسرح هواي مذ حضرت أول عرض للعرائس في طفولتي، وفي المهرجان وجدتُ ضالتي، عروض يومية مغرية، مجانية مثلها مثل باقي الفعاليات، تابعتها بشغف: "رؤوس أقلام/مفكرة" لميغ ستيوارت ودامدج غودز. "فليب بوك" لبوريس شارمانتز (فرنسا)، عرض مستوحى من كتاب "نصف قرن من الرقص" لميرس كانينغام. "حميمية" لعمر أبو سعدة ومحمد العطار (سوريا)، حوارية حول

تجربة الممثل السوداني ياسر عبد اللطيف في دمشق. غير أن جرأة مسرحيّ لبنان في الذهاب إلى النهايات أكثر ما أثار فضولي ودهشتي.

عرض "33 لفة وبضع ثوان" نص وإخراج لينا صانع وربيع مروة، أوغل في النزعة التجريبية إلى حد إلغاء حضور الممثل من على الخشبة، واستبداله بوسائط الاتصال الحديثة: الخليوي، التلفاز وصفحات النت، ولم تكن الحاضنة التجريبية شكلًا من أشكال العبث، بقدر ما كانت القالب الأكثر ملائمة لطرح قضية انتحار الناشط اللبناني والمسرحي ضياء يموت، الانتحار الذي أثار جدلًا واسعًا، وطرح الكثير من إشارات الاستفهام على كافة المستويات. شخصية في ذمة الغياب، ندرك أثرها الاجتماعي والسياسي والفني من خلال تعليقات الأصدقاء على الفيسبوك بما فيها الأفلام المصوَّرة، ونتعرف على بعدها الإنساني من خلال صوت الصديقة التي تتحدث مع مسجلة الهاتف بانتظار أن يرفع ضياء السماعة.

في عرضه "الجنة تحت أقدامهن" بالتعاون مع توماس ليبران، ذهب رضوان المؤدب بعيدًا في خرق تابو الدين والجسد، أسقط الأمهات من الحديث الشريف، واستبدلهنّ بكل النساء، ثم راح بأدائه المنفرد وحركاته المنكفئة على ذاتها، يبني تناصًا مشهديًا مع أغنية "الأطلال" لأم كلثوم، كي يرسم لوحة تراجيدية عن أنثى عاشت متعة الحب ليلة واحدة، وقضت عمرها تنكوي بذاكرة الوصل حتى دخلت الكفن، ذهب بجرأته حد التعرّي الكامل أمام الجمهور، ولم

يكن العريّ تغريبًا أو ادعاء لحرية زائفة، كان من صلب الحالة وفي سبيل الارتقاء بها.

وأنا أدوّن انطباعاتي في نهاية المهرجان، أرفع القبعة احترامًا لجهود فردية استطاعت أن تنجز كمًا ونوعًا، ما تعجز عنه معظم وزارات العرب، استطاعت أن تقدّم الثقافة بمفهومها الإنتربولوجي العميق، ويحضرني القول: "لم يزدني الورد إلاّ عطشا".

البؤس العاري

"تُحطمنا الأيام حتى كأننا/ زجاج لا يُعاد له سبك" وبيت المتنبي يصف حالنا نحن معظم السوريين بعد ثورتنا، حطام منثور في أصقاع الأرض، صنعته أيادي الطغاة. وأولئك الذين يتعاطفون معكَ في أول الدرب، ينفرون منكَ بعد حين، أيها العبء الثقيل على نفسكَ قبل الآخرين، تظن الجلوس على موائد الغرباء، يفتح أبواب الحياة الجديدة...؟! ثم تدرك أنها حياة الفُتات، وشيئًا فشيئًا تعتاد ابتلاع إهانة المُحسنين، حتى لا تكسب عداوة أحدهم، وتخسر قليلك، وتحمد الله أنكَ لا تزال قادرًا على تأمين كفاف يومكَ، لا تفترش الأرض مثل الكثيرين وتتسوَّل اللقمة.

قبل ذاك كنتُ سمعتُ الكثير عن قصص اللجوء، والتقيت بالكثير من اللاجئين في كل بلد زرته، أبي نفسه كان لاجئًا في ألمانيا ثم تونس، وتوفي في غزّة، وفي بلدي كان يعيش ما يقرب مليونيّ لاجئ، أغلبهم من الفلسطينيين والعراقيين ومن الجولان المحّتل، لكني لم أفكر في يوم من الأيام أني سأصبح في عداد اللاجئين، وأن أغلب النازحين السوريين في بلدهم، وفي دول الجوار، سوف يشكِّلون حالة فريدة من البؤس الخالص. ركام بشري متروك في العراء لمصيره المجهول، لا يدفع الآخرين إلى مد يد العون، بقدر ما يثير لديهم مشاعر الخوف والحنق، فإطعام هؤلاء وتأمينهم ليس

من مهام الأفراد، بل هي مسؤولية الدول المُوقِّعة على ميثاق حقوق الإنسان.

لبنان قِبلة اللاجئين منذ مذابح الأرمن أوائل القرن العشرين فالفلسطينيين في منتصفه ثم العراقيين، إلى السوريين يفرون من الحرب إليه أفرادًا وجماعات، يعبرون حدوده بشكل شرعي أو متسللين، نصفهم معارض والنصف الآخر من الموالين، منهم التاجر والميسور، ومنهم المتعلِّم المؤهّل بالخبرة العملية والذكاء، وبعضهم من النخب المثقفة ومن الفنانين، وعلى الأرجح هؤلاء يحالفهم الحظ في إيجاد فرصة عمل، أو فتح مشروع صغير، وترتيب أمورهم المعيشية بمساعدة معارفهم أو أقاربهم من اللبنانين. لكن معظم النازحين بلا كفاءات: أطفال وقاصرات وأميَّات، معوَّقون ومسنّون، صغار كسبة انهارتْ مصالحهم، سكان أرياف احترقتْ أراضيهم ومواشيهم... يجولون في الطرقات، أفضلهم حالًا يمسح الأحذية ويبيع الورود، وأغلبهم من الشحّاذين أقصى أحلامهم أن تضع في أكفّهم المتضرعة قطعة نقود، وما من أحد يسأل، أين فرص هؤلاء بالنجاة...؟!

حين أقطعُ شارع الحمرا ببيروت، أشعر أني أمام معرض لكل أصناف السوريين، ويبدو لي أن عددهم يفوق عدد اللبنانين، أراهم أشبه بلوحات تشكيلية، تارة بألوان زاهية ولمسة طرية، وأخرى قاسية مثل الرصاص، ولا تفارق مخيلتي لوحة الدمعة لرامبرانت. ألتقط أنفاسي في المقهى، يأتيني المتسوِّلون السوريون تباعًا، أعطي

الأول، أتجاهل الآخرين، ويخرقني الألم... بعدها أغرق بالقلق والتفكير، كيف أحمي نفسي من الوقوع في مأساة الفاقة أو المرض؟ وأنا صحفية وحيدة، لا سند لي، في سن اليأس، ومجتمع البيارتة لا يفتح أبوابه إلاّ للمظهر الثري الجميل.

أحببتُ لبنان أكثر من أي بلد زرته، أحببته ربما أكثر من بلدي، عشقتُ بيروت منذ اللحظة الأولى، عاصمة صغيرة، عريقة، دافئة، صُممت على مزاجي. فيها أستطيع أن أكون صعلوكة أصيلة من زمن عروة بن الورد، أكتبُ ما يحلو لي، أرتدي ما أشاء، أتسكع على هواي، أدخن في الشارع، أرشف قهوتي وحيدة في مقاهي الرصيف، قلتُ ليوسف، قال: بيروت عاصمة الكاتبات العربيات. لكني لا أشعر بالأمان، مدّخراتي المتواضعة على وشك النضوب، وما أكسبه من عملي أقل بكثير من تغطية نفقات عيشي، والموالون للنظام السوري كثيرون، ويتمتعون بالصلاحيات والنفوذ. غريب قدري، كيف تصير هناءتي كابوسًا برمشة عين...؟!

فكرتُ طويلًا، ترددّتُ كثيرًا، وأجلّتُ الموضوع لأكثر من ستة شهور، قبل أن أعزم النيّة، وأستقلّ سيارة الأجرة إلى مكتب "مفوضية الأمم المتحدة لشؤون اللاجئين"، وقبلها كنتُ قرأت على صفحات النت، جميع المعلومات الشحيحة المتوفرة بالعربية حول قضايا اللجوء. لم تتضح لي الصورة تمامًا، لكن على الأرجح بموجب اتفاقية جنيف لعام 1951، يحق لكل شخص أن يطلب اللجوء، إذا كان لا يتمتع بحماية بلده الأصلي، ويعيش خارج

حدوده، إثر تعرّضه للاضطهاد والمطاردة نتيجة انتمائه السياسي أو الديني أو القومي، أو إثر مصادرة حقوقه المدنية وحرياته الشخصية، أو بسبب ظروف قاهرة ليس له قدرة على ردها: كارثة طبيعية، مرض عضال أو حرب، وعلى أساس هذا الحق يُمنح اللاجئ الإقامة في بلد آخر، يكفل له الحماية والرعاية على كافة المستويات.

العديد من الشروط ينطبق على وضعي، واللجوء الإنساني بدا لي الحل المثالي، سيما أن الأمور في بلدي، تزداد تدهورًا وسوءًا يومًا إثر يوم، ولا توحي بأي انفراج في المدى المنظور، وذهبتُ إلى مفوضية اللاجئين أطالبُ بحقي في الحماية والرعاية، وأتكأ أيضًا على جميع حقوقي المنصوص عليها في اتفاقية "إلغاء كل أشكال التمييز ضد المرأة". ذهبتُ ولا أملك أدنى فكرة عن كيفية التسجيل وتقديم الطلب، أو شكل المكان الذي أقصده، ولا أدري لما تخيَّلته فسيحًا، مزودًا بكل وسائل الراحة، وأني فور وصولي سوف أنال منه المرام، ربما لأنه يتبع هيئة الأمم المتحدة.

وصلتُ، باب حديدي كبير، يحرسه اثنيّن من قوات حفظ النظام، فتّش حقيبتي العنصر المسؤول عن النساء، وسمح لي بالدخول... مساحة مغطاة بالرمال الأرجوانية، مسيَّجة بسور اسمنتي عال، تحدّه غرف ضيقة بكوّات صغيرة، يجلس خلفها الموظفون، وأمامهم تصطف طوابير البشر. حيّز صغير للعب الأطفال، وفي الوسط مظلتان واسعتان من القماش المشمَّع، وعدد كبير من الكراسي

البلاستيكية، لكنها لا تكفي نصف الوافدين، ولا يوجد حمامات، أو أية زاوية لبيع المشروبات أو الماء على الأقل، مع أن أقصر زيارة إلى هذا المكان، قد تستغرق نصف النهار.

سرتُ هنا وهناك أسبر المكان، غاصتْ قدمايّ بالرمال، الجو حار، وعرقي يتصبب، وكلّما هبَّتْ نسائم الصيف، أحسستُ بالغبار يملأ عينيّ، ويلتصق بشعري وملابسي. لا أدري ماذا أفعل، وأمام أية كوّة أصفّ؟ ليس ثمة إرشادات مكتوبة أو مرشدين. على مقربة من الكوّة الأولى وضع رجل مسنّ يده على كتف شاب من الموظفين، وقال بصوت خفيض "جاوبني يا ابني"، وقبل أن يكمل جملته، صرخ الشاب كمن يعاني من رهاب اللمس: لا تضع يدك عليّ، لا تسألني، لا تقترب مني، ابتعدوا عني، لا أعرف شيئًا... نظرتُ باستغراب شديد، وقلتُ في سري: أعوذ بالله من هذه الفاتحة.

أحد السوريين رآني حائرة ومحبطة، شرح لي خطوات التسجيل، عليَّ أن أصفّ على الكوّة الأولى، وآخذ استمارة الرقم، أملأها باسمي وعنواني وغايتي من التسجيل، ثم أنتظر على كوّة أخرى لتحديد موعد النظر في طلبي وأسبابي. كنت الرقم 397 في طابور يزيد على الخمسمئة شخص، أتوا في ذاك اليوم لطلب المعونة والرعاية الصحية أو اللجوء، والوقت يمر ببطئ شديد.

اعتراني التعب، لا أستطيع الوقوف لمدة طويلة، ولم أعثر على مكان شاغر للجلوس، شعر بي أحدهم وتبرّع لي بكرسيه، جلستُ وسط الجموع، نازحون من كل المناطق السورية، والبؤس يطبع

وجوههم، أغلب النساء شابات محجّبات يمسكّن بأطفالهن، وأحاديث خافتة عن منازل سقطتْ فوق رؤوس أصحابها، مصابين ومعوَّقين وخارجين من المعتقل، شعرتُ بالخجل، ماذا أفعل وسط هؤلاء المنكوبين؟ هم أحقُ مني بطلب الحماية والعون. الطفلة أمامي في حضن أمها تبكي بحرقة، ربما من العطش أو الجوع، طفرتْ الدموع إلى عينيّ، وحبستها مثل كل مرة.

جاء دور العشرة أشخاص الذين من بينهم رقمي، تجمَّعنا أمام كوّة الموعد المنشود، قال شاب: "وقفوا بنظام"، وردّت الصبية بلهجتها الحمصية: "كل شي إلاّ النظام، ما شفتْ شو عمل فينا؟" ضحكتُ رغمًا عني، وسرى شيء من الألفة في صفّنا، بعدها عدتُ إلى الوجوم، حين سمعت من ورائي امرأة تئن، لم يمضِ وقت كاف على عملية جراحية أُجريتْ لها، كانت تضع يدها على جرحها الطري، وتقف في الدور، قلتُ لها: "خذي مكاني"، قالت: "مالفرق، كلنا عم نتوجَّع". سألني الموظف: إن كان لي أقارب في لبنان؟ أجبته: نعم، سلَّمني أوراقي، استمارة البيانات، وموعد اللقاء بعد شهريّن.

في الاستمارة يسألوني عن أسباب مغادرتي لسوريا، وهي كثيرة تبدأ من ما قبل الثورة، من كوني عشتُ حياتي غريبة في بلدي، بلا أدنى حقوق أو ضمانات، وتحت أعين المخبرين، فقط لأني أنحدر من عائلة معارضة، ولأني صحفية مستقلة لا أنتسب إلى حزب البعث، ولا أمجّد المسؤولين لم أجد وظيفة لي في دوائر الدولة بالرغم من شهادة الدكتوراه التي أحملها. على مدار خمسة عشر

عامًا كنت أتابع الأنشطة الثقافية في دمشق، وأراسل الصحف والمجلات العربية، لم أوقّع عقد عمل مع أية جهة، ولم يكن لدي راتب ثابت ولا ضمان صحي، وليس لي الحق في التعويض عن الخدمة أو راتب تقاعدي، وكان من السهل دومًا سرقة تعبي، فليس لديّ أي سلطة تحميني.

أعطيت صوتي وقلمي للثورة السورية منذ صرختها الأولى، مع أني لم أكن بين المتظاهرين أو الناشطين، لكن مع تدهور الوضع الأمني وصعوبة التنقل، لم أعد قادرة على متابعة عملي، وفقدتُ مصدر رزقي الوحيد، ثم غادرت منزلي الذي وضعت فيه شقاء عمري هربًا من المعارك، وخوفًا من أحداث الخطف والقتل والمداهمات.

عامان، ومعظم أصدقائي ومعارفي وأقاربي باتوا في عداد القتلى والمعتقلين واللاجئين. وكنت أموت رعبًا من أخبار التعذيب والاغتصاب، ومن صوت الطائرات والقذائف، حتى كدتُ أُصاب بالانهيار، وأكثر ما كان يثير ذعري وقلقي أن الأمور لا تسير باتجاه الدولة المدنية الديمقراطية التي طالما حلمت بها، بقدر ما تسير باتجاه المزيد من التطرف والعنف، وقد لا أغلق مقلتييَّ على مشهد النصر، بل على كابوس الهزيمة، وأنا لم أشفَ بعد من فجائع الثمانينات ومجازر حماه.

أيها المجتمع الحر شبعتُ من الموت والقهر ونوبات الكآبة، وأطلب اللجوء إلى دولة تحميني وتمنحني حقوقي كإنسانة وكاتبة، أرغبُ أن

أمارس مهنتي، أعيش ما بقي لي، دونما خوف من تعسّف الحكام، أو تسلّط جماعة سلفية تقيم الحدّ.

الألوان تخلق البهجة

في سنوات مراهقتي حاولتُ أن أرسم، وكنت مولعة بتصوير وجوه من أحبهم، قرأتُ عددًا لا بأس به من كتب تاريخ الفن والتيارات الفنية، اطلعت على تجارب كبار فنانيّ العالم، وعلى مدار عشر سنوات تابعت أغلب معارض التشكيل التي أُقيمت في دمشق، التقيت أبرز تشكيليّها المعاصرين، حاورتهم، ومع ذلك لا أزال أشعر ببعض التهيُّب، كلما توجهت لحضور معرض جديد، فأنا أعشق الألوان والخطوط والتكوينات المزروعة على المساحات البيضاء، لكن اللوحة لا تسلمّني مفاتيحها، بل تثير لديّ أسئلة وتأملات، تبني في مخيلتي نصًا موازيًا، قد يختلف تمامًا عما يرمي إليه المشهد الذي أراه.

نقص لا أشعر به إزاء الفنون التقليدية الأخرى، ربما هو الافتقار إلى الخلفية الثقافية التشكيلية، ففي مدارس سوريا الحكومية التي منحتني شهاداتي الابتدائية والإعدادية والثانوية لم نكن نتعلم أي شيء في حصة الرسم، كنا نلهو ونثرثر، لأن المعلِّمة كانت أكثر جهلًا منا في هذا المجال، وحين أدركت أهمية التشكيل، لم تفلح محاولاتي الذاتية بردم هذه الفجوة، وظللت أقف صامتة وخجولة في حضرة اللوحة، وتحايلتُ على الأمر في مهنتي، بأن أتوجه إلى الفنان بأسئلتي التي تبدو له غبية في البداية، ثم لا تلبث أن تتعمق وتثير شهيته لكلام طويل، ينتهي دومًا بمشاعر ود خالصة بين

السائل والمجيب... معادلة غريبة لم أفهمها قط، لكنها جعلتني قريبة من أبرز تشكيليّ بلدي.

ما بالي تراودني كل هذه التداعيات، وأنا في طريقي إلى صالةِ "Art on 56th" في الجميّزة، ألأنها المرة الأولى التي أحضر فيها حفل افتتاح معرض تشكيلي في بيروت، أم لأني لا أعرف الفنان إدغار مازجي، وكل ما بحوزتي عن تجربته الفنية مكتوب باللغة الفرنسية التي بالكاد أفهم بعض كلماتها؟ مهما يكن من أمري، فحين وضعتُ قدمي على عتبات الصالة، كان بعض التوتر يكسو ملامحي.

دخلتُ المعرض بعد ساعة تقريبًا على افتتاحه، وفوجئت بالحضور الكثيف الذي يملأ داخل الصالة وشرفتها والحديقة، شققتُ دربي بصعوبة نحو اثنتي وثلاثين لوحة بمقاسات كبيرة وصغيرة، أُنجزت بين الأعوام (2007–2013)، قرأت العناوين المرفقة، كانت باللغة الإنكليزية (الجنة الضائعة، الجذور، الرحيل، عمشيت...) صور الحنين تملأ مخيلة هذا الفنان، تنسكب على الأمكنة والطبيعة والوجوه التي يرسمها بضبابية الرؤى والأحلام، كأنها الرغبة في استعادة بلده إلى ما قبل سنوات الحرب والخراب. وسوف يقول لي إدغار: إنه غادر لبنان وهو في الثامنة عشر من عمره، وعاد إليه عام 1999 وهو في الرابعة والأربعين، ذاكرته تطفح على لوحاته، سيما أنه لا يفكر بماذا يرسم، بل يعمل بطريقة اللاوعي، يدع مشاعره وألوانه تتدفق بتلقائية وبحس فطري، تنقله إلى ذكريات

الطفولة والأرض والجبال التي يعشقها، وغالبًا ما يرى نفسه مشغولًا بفكرة الانتماء إلى الأصل والجذور.

جلتُ على المعرض أكثر من مرة، تأملتُ اللوحات عن قرب وعن بعد، أغرتني كثافة الألوان الزيتية وعنفوانها، استوقفني ولع الفنان بالرماديات، يشتغل بالزيت، كما لو أنه يعمل بالرصاص أو الفحم، لفتني تنوّع موضوعاته، تعاطفه مع البسطاء الكادحين الذين يعتلون بعض فضاءاته، وكعادتي مددتُ يدي خلسة، وتحسست السطوح، هي طريقتي في السلام على اللوحة والتقرّب منها.

سألت صاحبة الصالة، لماذا تعرض أعمال المازجي؟ قالت: لأنه غريب ومختلف ومشهور. سألتها أن تدلني عليه، لأني لا أعرف شكله، نادته، وجاء مبتسمًا. هنأته، عرفّتُه بنفسي، اعتذرتُ لأنه لم يسبق لي الإطلاع على تجربته، وطلبت منه الإجابة عن بعض استفساراتي، بعد أن تهدأ الصالة، وينّفضُ عنه المعجبون والمعجبات، وافق وكان يأتيني من وقت لآخر، ويقول بإنكليزيته الطليقة: "آسف جدًا، أكره أن أجعلكِ تنتظرين"... ما ألطف اللبنانين، اللباقة تسكن جيناتهم.

وقفتُ على الشرفة أدخن لفافتي، وأخذت أنتبه إلى نوعية الحضور من حولي، على ما يبدو أنهم خليط من المثقفين ورجال الأعمال وسيدات المجتمع، معظمهم في أواسط العمر وما فوق، تبدو عليهم علامات الرخاء، يتحلقون في دوائر صغيرة، يشربون النبيذ الأحمر ويتحدثون. كنت عطشى، ولم أرغب في تناول الكحول، حينها

شعرت بالحنين إلى العصائر التي يقدمونها في معارض الشام... عدتُ أتأمل من حولي: وجوه حلوة، أجسام رشيقة، ملابس أنيقة... ثقافة الجسد جزء من منظومة القيم في لبنان، وقناعتي أن الجسد حاضنة للروح، يأخذ شكلها وعليه تنعكس مواطن الجمال والعطب فيها.

قطع تأملاتي ظهور عدد من أصدقائي السوريين، سُررت بوجودهم، وفوجئت أنهم دائمًا يحضرون معارض الفن في بيروت، تحدثنا طويلًا، وحين غادروا، كانت الصالة قد خلت إلا من بعض الزائرين، وبدأت حواري مع إدغار، أسأله بالعربي، ويجيبني بالإنكليزي، وأقول في سري: "يارب، بأية لغة سوف أكتب". على ما فهمتُ، هو من مواليد بيروت عام 1955، درس الهندسة أولًا ثم الفن، تنقَّل بين السعودية وفرنسا وأميركا، شارك في الكثير من المعارض الجماعية، وأقام خمسة معارض فردية، رسم لفترات طويلة بأسلوب واقعي، الوجوه والطبيعة الصامتة والمناظر الطبيعية، ثم اكتشف أسلوبه الخاص.

سألته كيف؟ قال: الرسم هو اكتشاف العلاقات بين الأشياء التي ننظر إليها، ذات يوم قررتُ أن أصنع العلاقات بدلًا من أن أنقلها، أولًا بدأت بالتجريد، وضعت هيكلًا، ومن تراكم البصمات تراءت لي أشكالًا، أخذتها بالاتجاه الذي أريد، لا أزال أعمل بنفس الأسلوب، أعكس العلاقات بطريقة تجريدية، وبعد ذلك أبحث عن الصورة في داخلها، وجوهر عملي هو الحوار بين الواقعي والتجريدي، لم أملّ

هذا الحوار بعد، بل أحاول تطويره من معرض لآخر، وأشعر دومًا أني أصل معه إلى مطارح جديدة.

-هذا يعني أنك لا تنتقي موضوعاتك، بل هي تتخلق أثناء العمل، فكيف تفسّر الحضور المتكرر لهؤلاء الأناس البسطاء في لوحاتكَ؟ قال: علاقتي قوية منذ الطفولة بالطبيعة، بالبسطاء، بالأشخاص الذين يرتبطون بالأرض، ولا يتوقفون عن العمل مثلي تمامًا، وأنا مثلهم أحب الأرض، وأزرع كل ما آكله، هم أشخاص تملؤهم السكينة، وإن كانت ضربات فرشاتي حادة وعنيفة في بعض الأحيان، حين نعمل بصدق من دون أن نسعى إلى تقليد الآخرين، لا بد وأن تنعكس صورنا على ما نقوم به، وغالبًا ما كنتُ أتضايق حين أُسأل، لماذا أشخاصك محنيون ومكسورون؟ وأجيب، أنتم ترون أنفسكم، أشخاصي يكدحون.

-وماذا عن الاهتمام بالرماديات، المساحات المتباينة، وتعدد الطبقات اللونية؟ قال: الألوان تخلق البهجة، أما العمل بالأبيض والأسود فإنه يصعِّد من حدة البعد الدرامي في اللوحة، وقد أكون متأثرًا بأسلوب سولاج. العلاقة بسطح اللوحة تحددها المساحة، المساحة الصغيرة تعني الرسم من الخارج، أما المساحة الكبيرة فهي الرسم في الداخل. الطبقات مهمة جدًا في اللوحة، شأنها شأن الحياة المكونة من طبقات تعكس طبائعنا، مواقفنا، وجهات نظرنا، والجدل بين الطبقات، هو الذي يجعل المشهد مثيرًا للاهتمام.

ودعني إدغار مازجي بود وخرجتُ، مطر خفيف يمسح شعري ووجهي، وليل بيروت دافئ يضج بالرغبات، وددتُ لو أكمل المشوار، لكن الهطل زاد، وتبكيت الضمير هاجمني، كم قتيل سقط، كم ناشط اعتُقل، كم شخص نزح عن بيته...؟ وأنا أتأمل الألوان والأزياء والأجساد الرشيقة، أثرثر وأضحك، عدتُ إلى شقتي ألوذ بالتلفاز، ما من جديد، طاغٍ لا يرحم وثورة يتيمة.

فوطة واحدة لخمس وعشرين مُعتقَلة ينزفْنْ

حين كتبتُ مقالتي "سوريات تحت التعذيب والاغتصاب" وأنهيتها بتدوين أسماء السجينات اللاتي أُفرج عنهنّ في صفقة التبادل مع المحتجزين اللبنانين في إعزاز، حينها لم أتوقع أن المصادفة ستجمعني بواحدة منهنّ بعد ثمانية أشهر من ذاك التاريخ. صبية لم تتجاوز ربيعها السادس والعشرين فتحتْ باب المكتب، وأطلَّتْ بوجهها الأليف وقامتها الممشوقة، ألقتْ تحيتها وسألتْ عن المدير، عرفتُ من لهجتها أنها سورية، قلتُ: تفضلي سيعود بعد قليل، وحتى أكسر حاجز الصمت بيننا بدأت بأسئلة التعارف التقليدية، مدينتها دراستها وعملها، متى خرجت من سوريا، وهل ستعود؟ بادلتْ أسئلتي بابتسامة عذبة وإجابات مقتضبة، من الحسكة، درستْ الإعلام في جامعة دمشق، ثم تنهّدتْ وقالتْ: قصتي طويلة ومعقدة، "كنتِ في السجن؟" سألتها على الفور وقبل أن تجيب دخل مديري.

أضحتْ شام محور اهتمامنا وتعاطفنا وهي تروي كيف اعتُقلت مرتين، مرة لدى الأمن السوري لتسعة شهور بتهمة الإرهاب، وأخرى لدى الأمن اللبناني لعشرة أيام بتهمة الدخول غير الشرعي إلى الأراضي اللبنانية. خرجتْ من سجنها الأول بصفقة التبادل ومن الثاني بكفالة، وظلَّ جواز سفرها محتجزًا وعليه تأشيرة دخولها إلى فرنسا، كانت تنتظر استلامه ومغادرة البلد بفارغ الصبر. طلب

مديري أن تكتبْ ذاكرتها في السجنيّن وتلكأتْ، اقترحتُ أن نلتقي ثانية وأكتبها عنها، قالتْ: سواء كتبتُها أنا، أم كتبتِها أنتِ، لن تُنشر قبل أن أصبح في فرنسا. كان طلبها مفهومًا ومبررًا، فهي تخشى على نفسها وعلى أهلها في دمشق.

بحثتُ عن اسمها على غوغول، وكان أهم ما عثرتُ عليه، أنها في نيسان 2011 ناشدت الرئيس السوري عبر موقع "كلنا شركاء"، أن يوقف العنف والاعتقالات التعسّفية، ويفتح قنوات الاتصال مع المعارضة، ويسمح بالتظاهرات السلّمية. اتصلتُ بها والتقينا وفي طريقنا إلى حي "فيردان" كانت تتحدثْ بحيوية وود، لكن ما إن جلسنا في المقهى، وأخرجتُ أوراقي وقلمي، وبدأت بتوجيه أسئلتي إليها، حتى بدأ الشك يتسلل من تعبيراتها في غفلة منها، وكان الشعور بالخوف يطلّ من أحداقها، يرشح من حركة شفاهها ويديها. أعرفه جيدًا رهاب الأجهزة الأمنية يطحننا جميعًا نحن السوريين، لم أتحايل عليها ولم أضغط، وددت لو أحميها وفاضت أمومتي، وكنت كلما شعرت باضطرابها أغيُّر الموضوع.

لم يكن لمبادرتها في مناشدة الرئيس أثرًا على اعتقالها، كانت واحدة من المبادرات العديدة التي أُطلقت في بداية الثورة السورية لمناشدة القيادة بعدم التصعيد، جميعها لم تلقَ آذان صاغية وكان الحل العسكري سيد الموقف. أوضحتْ شام، وأضافتْ: اعتُقلتُ على خلفية ذهابي إلى أميركا لحضور مؤتمر لحقوق الإنسان، حين عدتُ إلى سوريا اتصلوا بي، وأبلغوني أن أراجع الفرع 40، الفرع

الذي كان في تلك الفترة يراقب الإعلاميين والنشطاء، ذهبتُ إلى استجواب يُفترض أنه يحترم حقوقي، لكن في الربع الساعة الأولى تم إصدار مذكرة توقيف بحقي على خلفية أنني إرهابية، وتم تحويلي إلى فرع أمن الدولة 251، (فرع حافظ مخلوف) بتاريخ 2012/11/1. اعتُقلتُ شهرًا كاملًا دون توجيه تهمة لي سوى أن موقفي كان مع الانتفاضة الشعبية، الموقف بحد ذاته كان تهمة، ثم تم تحويلي في الشهر الثاني إلى شعبة المخابرات العامة، وبقيتُ أيضا شهرًا هناك.

خلال شهرين من تواجدي في الأفرع الأمنية جرتْ الكثير من الحوارات بيني وبين ضبّاط الأمن، حُقق معي أكثر من مرة خاصة في الفرع الأول، ووُجهت لي الكثير من التهم الباطلة: التواصل مع سفارات أجنبية، دول معادية، نحن مع أردوغان، نتآمر على النظام، على علاقة بتنظيم القاعدة، وأحيانا بالعرعور. نراسل "الجزيرة" و"العربية" ونبعث بتقارير لـ"شام الإخبارية"، وأكثر ما لفت نظري أن الضباط كانوا يدركون أن التهم جاهزة ومعلبة، هم أنفسهم كانوا يملون من التحقيق والكلام ويسخرون.

كنتُ أجيبهم أنه ضمن إطار عملي الصحفي، كان يحق لي اللقاء مع أطراف النزاع، التقيت مع عدة أشخاص من الجيش الحر والنظام، كما التقيت عارف دليلة قبل اعتقالي بأسبوع، لم أنكر ذلك ومن وجهة نظري لم أسيء إلى البلد أو القوانين، كنتُ أقوم بعملي الصحفي، وأبينُ حقيقة ما يجري على الأرض.

كانوا يسألونني عن قياديّ الجيش الحر، وكيف يمكن جلبهم؟ عُوملت في أمن الدولة على أساس أني إرهابية وأدعم لوجستيًا الإرهاب والجيش الحر، وفي حقيقة الأمر لم أفعل أكثر من أني نشرتُ ثلاث مقالات في "كلنا شركاء"، المناشدة، وكيف تصرف عناصر الأمن في منطقة المزة بساتين، واحدة عن أوضاع النازحين الحماصنة في مخيَّم اليرموك، والرابعة في "الشرق" السعودية عن تلاعب الأمن بالليرة السورية، هذه كانت المقالات التي كتبتها والملفت أنهم أحالوني إلى محكمة الإرهاب.

أثناء التحقيق لم أتعرض للتعذيب الجسدي أو الاغتصاب، استعملوا معي التعذيب النفسي، وضعوني أربعين يومًا في المنفردة، مكان وسخ جدًا، وكانوا يعاقبوني أحيانًا بالحرمان من الطعام. بعد التحقيق حُولّت إلى محكمة الإرهاب، والنائب العام أصدر قرار بإيداعي في "سجن عدرا" لحين الطلب، وبقيت في السجن من دون أية محاكمة حتى 2013/3/15.

ظروف السجن لم تكن سهلة، السجن خاضع للأمن السياسي، وافتُتح فيه مهجع خاص بسجينات محكمة الإرهاب. المهجع في الطابق الأول، ضيق جدًا، بلا نوافذ، وكنا أربعين سجينة نُحس أننا نختنق من نقص الهواء، فرشات على الأرض، وأسِرّة للقديمات من ذوات المحاكم العسكرية، برد ولا توجد تدفئة ولا مياه ساخنة، يوجد سخانيّن نغلي عليهما القهوة والشاي، ونسخّن الماء بالطناجر للحمام، ولكل واحدة دور كل عشرة أيام، عانينا كثيرًا من الجرب

والقمل. يقدمون لنا وجبة واحدة في اليوم على الغذاء، صحن برغل أو أرز فقط وبكميات قليلة، ضجيج والزيارات ممنوعة.

بعد أن ازداد عددنا كثيرًا، أضربنا عن الطعام لمدة ثلاثة أيام من أجل تحسين ظروف الاعتقال، لم تستجب إدارة السجن لمطالبنا، تم عزل منظِّمات الإضراب في المنفردات وضربهنّ، افتتحوا مهجعًا آخرًا ووزعونا إلى قسمين. في 3/15 تم استدعائي إلى قبو التحقيق، كان القرار مسبقًا بتوقيفنا بتهمة القيام بأعمال إرهابية (المادة 15)، ونُقلت إلى المهجع الجديد بنفس السجن، لكن ظروفه كانت أفضل، كنا 15 سجينة، يحق زيارتنا مرتين في الأسبوع من قبل المحامين والأهل فقط، الزيارات الخاصة ممنوعة وزيارات الأهل على الشبك فقط، ممنوع أن نتكلم بالهاتف مع أن القانون يجيز لنا ذلك، فترة توقيفنا مفتوحة إلى أن يأتي قرار إخلاء سبيلنا من فرع الأمن.

في السجن لفتَ انتباهي أن ثلاثة أرباع المعتقلات لم يكن لهنّ علاقة مباشرة بالثورة، اعتقالات عشوائية على الهوية والمناطق وتتم على الحواجز الأمنية، وهؤلاء المعتقلات كن يُعاملّن كأسيرات حرب، ريثما يقوم الجيش الحر بتحريرهنّ من خلال صفقات تبادل الأسرى، يتعرضّن للإهانة والتعذيب، وكان هناك معتقلات حوامل أجهضّن، امرأة في الخمسين من عمرها اعتُقلت فقط لأنها من عدرا، وأُوقفت شابة لأن خطيبها كان مع الجيش الحر، كان ثمة معتقلات مؤيدات للنظام خرجّن معارضات، وكنت أشعر أنهم بتلك

الاعتقالات العشوائية، يحاولون تشويه ملف المعتقلين وتشويه صورة الثورة.

المعتقلات اللاتي لهنّ علاقة بالثورة كنّ يبقّين في الأفرع الأمنية أشهرًا منسيات من دون تحويلهنّ إلى سجون مدنية. بعض المعتقلات تعرضّن لضرب شديد مثل فاتن رجب، دلال أبو قياس، أمل صالح، منى الوادي، المحامية ميسر حديد، ورشا مخزي. فاتن رجب أكثر من تعذّبت وهي دكتورة في الفيزياء من دوما، وُضُعتْ في منفردة في الجوية لسنة كاملة ولم يصدر بيان واحد للمطالبة بالإفراج عنها، كانت من الأسماء المغيَّبة تمامًا، دلال أبو قياص مهندسة كهرباء من درعا وُضعتْ في المنفردة بفرع الجوية لمدة أشهر، وتعرضتْ للتعذيب ولم يتم تحويلها حتى اليوم إلى المحكمة، أم لطفلين ظلت ستة أشهر في الجوية تخضع للتحقيق، حورية عياش قضت عشرة أشهر في الجوية، نصف الفترة كانت في المنفردة، وكل هؤلاء المعتقلات ذات ملفات سرّية بأرقام وليست بأسمائهنّ الحقيقية.

ثمة معتقلات أمهات مثل: نسرين السعد، عبير رافع، هبة الزرقان، مجد الشربجي، فضيلة البدوي وفداء الشمالي. هناك معتقلات تحت سن الثامنة عشر، مثل: ريما برماوي، رزان بطالو وهبة صيصان. كان يتم ابتزاز معظم المعتقلات من أجل إجراء مقابلات مع قناة الدنيا، وتصويرهن كإرهابيات والإدلاء بتصريحات عن تورطهنّ بنقل السلاح لقاء إخراجهنّ من المنّفردة، وتحويلهنّ إلى سجن مدني،

وثلاثة أرباع المعتقلات أجريّن مثل تلك اللقاءات مثلما حدث مع نسرين السعد. تعرفت بكل هؤلاء السجينات أثناء فترات التنفس في الباحة، معظمهنّ لم يكن أحد يزورهنّ لأن أهاليهنّ في أماكن بعيدة، كنّ ضحايا أكثر مما كن معتقلات.

كنتُ من الأوائل اللاتي تم تحويلنا إلى محكمة أمن الدولة، وكنت أشعر بخوف شديد، نسمع عن أحكام جائرة وطويلة، وهناك إشاعات كثيرة عن إعدامنا بعد تحويلنا إلى السجن، كان لدينا إحساس بأننا لن نخرج أبدًا من السجن، وكان تعامل الضباط معنا قاسيًا، وازداد خوفنا مع الحصار الذي فُرض على السجن أثناء محاولة كتائب الجيش الحر في دوما وحرستا تطويق السجن وتحرير السجناء. الثلاثة أشهر الأخيرة كانت هي الأصعب عليّ، الخوف يكبر مع الأعداد الهائلة التي تدخل إلى السجن، وتتكوَّم فيه ولا تُحال إلى المحاكم، ولم نكن مشمولين بأي عفو رئاسي قد يصدر، لأن العفو يطال المجرمين فقط وليس السياسيين. كانت تُنفذ إعدامات ميدانية في السجون الأخرى كسجن صيدنايا، وكان يتم نقل البعض إلى سجون سرية ويغيب عن العالم، كنا نشعر بالحنق والحزن الكبيرين، لدرجة أننا نظمنا إضراب للمطالبة بالإفراج عنا، وكانوا يقولون: أنتنّ صفقات تبادل.

لم يكن في السجن أدوية ولا أطباء، وحين تمرض إحدانا كنا نحس بها ونحاول التخفيف عنها. في اللحظات الإنسانية الخالصة كنا نصلي صلاة الجماعة أو نقيم مائدة جماعية، كان عندنا شعور

جمعي، كل ليل نبكي كأمهات، ونودع بعضنا أثناء إخلاء السبيل، كان بيننا نساء شجاعات جدًا من المعضمية ودرعا، لم يتراجعّن عن دعم الثورة، كن يخفّن الموت فقط، ولا يأبهّن بالسجان. حين بدأ القصف على السجن أثناء تطويقه من الجيش الحر وحُبسنا داخل الأبواب، هذا وَلَّد شجاعة لدى الجميع، قوينا وحدث ما يشبه العصيان، كنا نغني أغاني الثورة، وكانت رايتنا ترتفع مع رايات الجيش الحر. دُفعتنا كانت أقوى دفعة، كنا طبيبات ومهندسات وصيدلانيات، وأقمنا القيامة في السجن، عُوقبنا جميعنا، الناشطات نُقلّن إلى المنفردة، وأُعدّن إلى الأمن السياسي مرة ثانية، والأخريات تعرضّن إلى عقوبات الحرمان من التنفس ومن التلفزيون وزيارات الأهل.

في كل فترات الاعتقال القاسية لم تنقصنا المفارقات الساخرة والكوميديا السوداء. في الفرع الأول والثاني كان من الممنوع دخول كل الأغراض النسائية، وكانت المعتقلات أثناء الدورة الشهرية يستخدمّن الجوارب، أو يمزّقن قمصانهنّ الداخلية. في فرع الخطيب 241، كنا 25 معتقلة في غرفة مترين بمتر، دفعة كبيرة من زملكا وجوبر من معتقلات الثورة عن جد، جميعنا نزفنا في وقت واحد من الخوف، دققنا الباب، وطلبنا مقابلة مدير الفرع، وفوَّضنا من تتحدث عنا، جاء المدير، وقالت المفوَّضة: "بدنا فوط نسائية، الدم صار للركب"، أرسل لنا فوطة واحدة، وقال: اقتسموها فيما بينكنّ.

كنا نحاول سرقة المحارم من على مكتب المحقق، وحين تعود إحدانا من غرفة التحقيق ومعها محرمة كنا نحتفل بها، أما التي تعود خالية الوفاض كنا نوبخها، ونقول "بعتناكي لحتى تجيبي محارم، ولا لحتى تعترفي عنا؟". في الفرع الثاني قامت السجينات للدبكة (وأنا الحاصودة) قال الحارس: "ولك نزعتوا سمعة الفرع، عمرو ما حدا دبك هون، ما نكون سامعين صوت الضرب".

فجر الجمعة في السجن كنا نقف في خطين متوازيين ونصلي، وكانت يسرى من "النصرة" تؤم بنا، دخل المدير وسألنا بغضب ماذا يجري؟ (الصلاة ممنوعة)، جلست المعتقلات وظلت يسرى واقفة بغطاء رأسها، أجابته: نصلي، وأنا أُنظم الصلاة. نزع حجابها وداسه ببوطه العسكري، داسونا وضربونا، ورشوا علينا غازات مسيّلة للدموع من أجل تفريق صلاة الجمعة.

في رأس السنة بعثت لنا إدارة السجن علبة حلوى معفنة، رفضنا قبولها وقلنا أرسلوها للشباب، وفي اليوم التالي عاقبونا لأننا أرسلنا للشباب علبة حلوى معفنة وتسمم بعضهم منها. مرة تعطلت كاميرا المراقبة في مهجعنا فنادينا الحارس وقلنا له: "صلح الكاميرا، بلكي حكينا شي ما سمعتوه"، كنا نقف أمام الكاميرا ونقول: يا دولة، يا حكومة، جيبولنا معجون سنان. هذا عدا الخناقات بين البنات، واحدة مع الثورة السِّلمية وواحدة مع المسلحة أو المعارضة.

كنتُ سأدخل شهري التاسع في السجن، فقدتُ الأمل من الخروج تمامًا، مرضت أسبوعًا كاملًا واكتأبت، وكانت محكمة الإرهاب

بدأت تفصل في الدعاوي وتحيلها إلى جنايات، أذكر أني تشاجرت مع مدير السجن ووصفته بالواطي وكلب النظام، شحطني الضباط إلى المنفردة وأعتقدت أني لن أخرج منها أبدا. في 7/15 أرسلت المحكمة قرارًا بإخلاء سبيلي، فرحتُ كثيرًا وشعرت بالنصر. الحكم صدر بموجب وساطات وضغط على القاضي من منظمات حقوقية طالبت بالإفراج عني، أُدرج اسمي في صفقة التبادل مع الأسرى اللبنانين، كنت مع عشرين معتقلة وردت أسماؤنا في الصفقة، نقلونا إلى الأمن القومي، بقينا عشرة أيام، كان الأسبوع الثاني من رمضان، تمت الصفقة وخرجنا في 2013/7/20.

أثناء اعتقالي كان أهلي يعانون الخوف والقلق مما يسمعونه عن وفاة المعتقلات تحت التعذيب، ظلوا شهرين لا يعرفون أين أنا، وبعد أن عرفوا مكان سجني صاروا يذهبون كل يوم للمراجعة بشأني إلى القصر الجمهوري، محكمة الإرهاب، وزارة العدل، مجلس الشعب، ووزارة المصالحة الوطنية. وحين خرجت من السجن كان خوفهم وخوفي كبير من أن أُعتقل مرة أخرى.

غادرت شام مملكة الرعب، ولم تغادرها كوابيسها، كم من السنوات تلزمنا حتى نتعافى؟.

حين لامس النسيم جسدي العاري

لبيروت القديمة سبع بوابات كانت تحرسُها سبع عائلات، ثم أُضيفت البوابة الثامنة، وكانت تكفيني واحدة فقط، حتى ألوذ بها من جحيمي، ومن بلاد تسقط فوق رأسي. ابتعدتُ عن العوائل والطوائف كعادتي، فتحتُ باب الثقافة، ومشيّتُ على رصيف المرفأ الجديد، أنتظر مصادفات الحياة، وأتأمل فضاء انتظاري. من أين أبدأ رحلتي؟ كنتُ خائفة ومترددة، لكني على يقين، لن أخرج أبدًا كما دخلت.

وأنا أقف عن بعد، أدخن لفافتي، وأستطلع المكان والبشر، استهوتني ألوان الطيف، وأغراني أن وسط الثقافة لطيف، ومن السهل أن أتبادل الابتسامة والحديث مع الجميع. كانوا يتحلقون في دوائر صغيرة، يشربون نبيذهم، وكنت أقرأهم، أتابع محاضراتهم وعروضهم الفنية، وتدهشني خلطتهم السحرية، قدرتهم على كسر ثالوث التحريم. ومع الوقت اعتدتُ عربيتهم المهجَّنة باللغات الأجنبية، عشقتُ إيقاع لهجتهم البيضاء، وتمنيت لو أصير واحدة منهم، يتجرؤون ما شاءوا على ساستهم، من دون أن يختفوا في الزنازين، أو يتشردوا في أصقاع الأرض.

لبيروت فصولها الصريحة، وأواخر الربيع بدتْ لي أجمل عاصمة رأيتها في حياتي. تفتحتْ ورودها، أشرقتْ أشجارها، واستلقى اللؤلؤ على بحرها، وكنت تعلمتُ أن أصل جهاتها، وأقضي أوقاتي في

قلبها الدافئ، أنظرُ إليها وتسري الفتنة في داخلي، أحدق في عينيّها وأنسى تعبي، أقبّل هوائها وأهمس حبيبتي. ما سر هذا الغرام؟ وانتبهت أني لأول مرة منذ زمن بعيد، أحسُ أني طليقة في الأمكنة العامة، لم أعد أمقتُ وحدتي، ولم تعد تجعلني أشعر بالغربة، أو تجبرني أن أستسلم لعزلتي. النساء هنا يشغلّن الفضاء، ويتحكمّن بآدابه، وتقدُّم اللبنانية في السن لا يُغلق عليها الباب، يدفعها إلى المزيد من تدليل نفسها والاهتمام بالشأن العام.

صار شُغلي الشاغل أن أراقب النساء وأبتسم، حتى ظنّ البعض أن لي ميولي المثلية، ولست كذلك، كنت أنظر إلى المرأة اللبنانية، واستكشف في مراياها نقصي. شعرتُ أنها الوحيدة من بيننا نحن العربيات التي تعيش حياتها في العلن، تعرفُ ماذا تريد، وكيف تُعبِّر عن ذاتها، وتملي حقوقها على الجميع.

قبل ذلك كانت فظائع اعتقال السوريات واختطافهنّ في بلدي، جعلتني أرتعد خوفًا من الاغتصاب وأنا أقطع حواجز الأمن، أو أسير وحدي، مع أني كنت أطأ خمسيني. قصصتُ شعري الطويل بيديَّ، ولم أعد أصبغه إلاّ نادرًا، تجنبتُ وضع معاجين الترطيب أو مواد التجميل على وجهي، أهملتُ مظهري، وغالبًا ما كنت ارتدي بجامتي الفضفاضة، وأقبع كئيبة في بيت أمي.

دخلتُ لبنان مع دخولي سن اليأس في شتاء 2013، وكنت أشعر أني كتلة من الحطام في داخلي، ومن الخارج أقبح امرأة في التاريخ، لن أجد من ينظر في وجهي، ويمنحني فرصة للعمل أو

الحياة، وبعكس توقعاتي أهدتني بيروت كامل فرحي. استأجرتُ غرفتي في سكن مشترك للبنات بحي "المزرعة"، وبعد شهر بدأت أنشر مقالاتي في جريدة "المستقبل"، ثم انتقلت إلى شقتي المستقلة في "الرملة البيضاء".

شرطي المرور يوقف لي السيّر، وبعد شهر يتبعني، ويقول: "بدي احكيكِ". سائق السرفيس يحدثني عن الجمال السوري. أسأل صاحب المطعم إن كان لديه شيء من الحلوى، ويجيبني: "مافي حلو إلاّ عيونِك". يتبعني الشاب الجميل بسيارته الفخمة، ويدعوني لشرب القهوة، أقول له: أنا بعمر أمك، ويردّ "شو خصّ العمر؟". كنت أتفاجأ ولا أصدق، أتجاهل الإطراء، وأرفض العروض وأنا أقهقه، لكن تودد الرجل اللبناني إليَّ كان على قلبي أحلى من العسل. نفضتُ عني الغبار، نزعتُ بنطالي الطويل، وارتديت الفساتين القصيرة، بعد أن هجرتها ربع قرن، وحين كان النسيم يلمس جلدي العاري، وتتغلغل الشمس في مسامي، كنت أشعر بأنوثتي تستيقظ.

لبيروت أسماء كثيرة، أقربها إلى روحي "المدينة الإلهة"، وأسميها في قلبي "ثورة الأرز" يتعرض ناشطوها للاغتيال منذ عشرة أعوام، ويتابعون حراكهم السِّلمي في وجه الموت. أفراد لكل منهم طبعه ومشروعه الخاص، يجمعهم هاجس إعمار لبنان وحق المواطنة، ويشكلون تيارًا له أثره وثقله. يدعمون ثورتنا، ويلحّون على خروج قتلتهم من أراضينا، وابتسمت لي النجوم، حين التقيت بعضهم منذ

يوم نزوحي الأول. كانوا البلد الذي سحرني وآزرني، أهداني عيوني الجديدة، وسألتُ نفسي، لماذا أتماهى بوقائع وأسماء لا علاقة لي بها؟ حتى أكتب أني أمقتُ حكم الأسد. قاطعتُ قلمي الرصين ونقدي الحصيف، تحديّتُ كوابحي، وبدأت أسرد مشاعري، وأسخر من مفارقاتي، شجعوني، ولم أعد أخشى أحدًا، أو أخجلُ من شيء.

لم أعد أكتب عن الأحداث، صرتُ أكتب حدثي في قلبها، وحين أضع موادي على مكتب مديري، ويثني عليها، يخبرني من أُعجبَ بمقالتي السابقة، وكم بلغ عدد القراء الذين فتحوها على موقع الصحيفة. كنت أنظر إليه غير مصدِّقة، أبتسم، وأشعر أن أجنحة بيضاء تنبت على ساعدي. لن أنسى لطفه ودعمه لي، كان يفهم صمتي، ويديرني في الوجهة التي أريد. قبله كنت أمشي على رأسي، وبقربه تعلمتُ أن أقف على قدميَّ، ونزولًا عند رغبته بدأت أخطُّ أولى صفحات حياتي. استُقبلتْ بانتباه لم أتوقعه، وصار معارفي في المنابر الأخرى يطلبونها، وكتبتها حتى تعبتُ، وشعرت أني أكاد أفقدها.

حياتي الفقيرة، المسروقة، المحروقة، المهتوكة، مثل حيوات أغلب السوريين، لم تكن استعادتها سهلة عليّ، تعودّتُ أن أطمسها لأحمي نفسي، وكان عليّ أن أرتق ثقوب ذاكرتي، وأرمم مناطقها التالفة، أدخل دهاليزي ببطء، وأنكأ جراحي جرحًا بعد جرح، أنبش أسراري، وأبكي وأنا أحررها وأبصر على الأوراق خيبتي، والألم الذي يصرخ في أعماقي. كنت امرأة من ورق، تُنمِّق تجارب الآخرين، وفي

بيروت كتبت حكايتي، ووجدتني أحيا، وأجذب القراء بجرأتي، أنا الإعلامية، السورية، المهملة، التي اقتصرتْ معارضتي على الصمت والمقاطعة، وكنت أموت خوفًا، أن يسحبني الأمن من سريري بعد كل زلّة لسان.

لبيروت أكثر من وجه، وأنا عرفت فِتنتها وحرماني. كنت أسكن في حيّ يطلّ على البحر، وتطلّ من مبانيه العالية وشوارعه المضاءة فنون العمارة والتخطيط. حدائق منسّقة، واجهات زجاجية كبيرة ومتاجر فخمة تعكس حياة الأثرياء، لكن بنايتي القديمة كالمومياء، تقابل حاويات القمامة، وتشرف على ثُكنة عسكرية. تنخر الرطوبة أرضها وجدرانها وتمديداتها الصحية، وتشكو انقطاع التيار الكهربائي في غير مواعيده المحددة، ولم يكن في بناية الأحلام مُوَلِّدة خاصة للنور أسوة بباقي الشقيقات من حولها.

منزلي حديث الترميم في الدور الثامن، بغرفة واحدة وحمام صغير. فرشّته من "الأوزاعي"، كافحت صراصيره التي اقتحمتْ عليّ خصوصيتي، لكن مياهه المالحة، الصدئة، أعيتْ شعري وجلدي وملابسي. أكتب على حضني، أغسل بيدي، وأستلقي بأناة على سريري حتى لا يسقط بي. يغزو سمعي رشق الرصاص، وأحيانًا تصلني أصوات ضحك وسباب وضرب، هل هو عنف جسدي، أم جنسي؟ الله أعلم، لا أنام، ولا أجرؤ أن أفتح بابي. وكنت أدفع لقاء رفاهي ستمئة دولار في الشهر، وتدفع لي هيئة الأمم ثلاثين دولارًا ثمن طعامي.

معارفي كثيرون، لكني لم أعثر على رفيق دربي، ولم أعقد صداقاتي العميقة مع المثقفين اللبنانين، كنت أجد الأعذار وأختفي إن تقرَّب أحد مني، ربما لأني أفضّل رشف قهوتي على جلسات الخمر والطعام، أو أن دخلي القليل الذي لم يتجاوز الثمانمئة دولار، جعلني أكتفي بعلاقتي الناعمة مع الفضاء.

شارع الحمرا جمعني بزميلي القديم، فرحتُ به، وصرنا نتواعد. لم يكن مفتونًا مثلي ببلد النزوح، كان يتوجس من الجميع، ويحذرني أن مقالاتي تضعني في دائرة الخطر، وحين انتبهتُ أن زميلي لا يحمل بيده سوى صحيفة "الأخبار"، وله علاقاته بأشخاص موالين لحزب الله، كنت أُودع هدأتي في بيروت.

انتهى عامي الأول باغتيال شطح، واستقبلتُ الجديد بالتفجيرات وحوادث الاعتداء على الناشطين السوريين. وما إن انتصف الربيع حتى شعرت أن هناك من يتعقبني، وأن عاصمة أحلامي تغلق أبوابها في وجهي. لم أعد أُكثر الخروج من منزلي، ولم أعد أشتهي الكتابة، وعادت الشكوك والمخاوف تسرح وتمرح في رأسي، تركتها أمانة عند "حالش" و"داعش"، وهربت.

عودة المَنفي إلى منفاه

وهبتُ مقتنياتي المتواضعة لحارس البناية، التي أستأجر فيها غرفتي، ودخلت بوابة الرحيل أنوء بحقيبتيّن، الأولى لحاجاتي الصيفية والأخرى للشتوية. وضعت حملي على شريط الوزن في مطار بيروت الدولي، وقالتْ لي الشابة اللبنانية الجميلة، بعد أن تمعّنتْ طويلًا في جوازي السوري: "لديك ثمانية كيلو غرامات فائضة عن المسموح"، تنهدتُ وقلت: "هذا كل ما بتُ أملكه، أرجوك دعيني أمر"، أجابتْ: "إما أن تفرغي الزائد، أو تدفعي ثمانية وثمانين دولارًا". دفعتُ المبلغ، وتابعت طريقي إلى حاجز الأمن ثم قاعة المغادرين.

أرحلُ، كمن يدوس على قلبه، وثلاث ساعات على متن الطائرة، وساعة في مطار اسطنبول، كانت كافية أن أعبر من قارة إلى أخرى، وأعود إلى منفايّ.

غادرتُ صوفيا وهي تزيل عن نفسها معالم الشيوعيين، وها أنا أدخلها في الليل كما دخلتها أول مرة، ويستقبلني نفس الصديق الذي ودَّعني حين هجرتها قبل ربع قرن. أنظر إلى شعره الأبيض، وأقول "كبرنا كتير"، يبتسم لي، ويقودني بسيارته إلى منزله الصغير، وهناك ألتقي بابنه اليافع وولديّ أخيه النازحيّن مثلي، وعلى مائدة العشاء نتبادل أحاديث باردة حول الوضع السوري.

لا أحد يتابع الأخبار، جميعهم يشعر بالإحباط من قادة الائتلاف والمعارضة، ومن مآلات الثورة، والكل يبحث عن خلاصه الفردي، وقبل أن أبدأ مشواري شعرت بالإعياء.

عرفتُ صديقي قبل أن أترك بلغاريا بفترة قصيرة، جمعتني به أختي التي كانتْ في زيارتي بعد أن خرجتْ لتوها من المعتقل. لم يغادر البلد بعد نيله الشهادة العليا، تزوَّج زميلته، وباشر العمل في الإذاعة البلغارية وجامعة صوفيا. معرفتي به لم تكن عميقة، ولم تدم طويلًا، لكني أكن له الاحترام، وحين سألني بعد عودتي إلى سوريا أن أهتم بطالباته الثلاث، اللاتي سوف يتدربّن على اللغة العربية لمدة عام في جامعة دمشق، بذلتُ أفضل ما بوسعي لمساعدتهنّ، وربطتني صداقة مديدة بإحداهنّ، هي التي سوف تدعوني إلى موطنها، بعد أن دخلتُ محنة النزوح.

فتشتُ عن عنوانه، وتواصلت معه من جديد، وأنا أنتظر رد السفارة البلغارية على طلبي تأشيرة الدخول. كان لا يزال يقيم في صوفيا، ويزاول نفس مهنته السابقة، سألته المساعدة، ووعدني بتشغيلي معه في الإذاعة وتأمين غرفة مستقلة لي، مفروشة ومزودة بالتدفئة المركزية، بإجار لا يتجاوز المئة وخمسين دولارًا، حينها حزمتُ أمري وغادرت لبنان. لم أجد غرفتي بانتظاري لأن المالكة اعتذرت عن تأجيرها في اللحظة الأخيرة، قال صديقي القديم وفي تلك الليلة الباردة من أواخر حزيران، أعارني سريره الضيق، تكوَّرتُ على تعبي وخيبتي، وغرقت في الكوابيس.

فتحتُ الصباح بلا شهية، وحين تسللتْ الذكريات إلى قلبي، زجرتها وأبعدتها. لا وقت عندي لترف الحنين، عليَّ أن أرتب مفردات عيشي، غرفة صغيرة تؤويني، عمل يطعمني، خط الموبايل والإنترنت. ارتديت جينزي وبلوزتي المدعوكة على عجل، وقبل أن يذهب صديقي إلى عمله أوصلني إلى مركز المدينة، حيث استلمني ابن أخيه، ورافقني في رحلة البحث عن حياتي، وكنت أعتقد أن معرفتي بخريطة المكان، وإجادتي للغة البلغارية، سوف تيسّر أمري.

لم أتعرف على عاصمة شبابي، واكتشفتُ أني نسيت معظم الحروف السلافية والكثير من المفردات البلغارية، ولم أعد قادرة على قراءة اللافتات من حولي، وأحتاج من يرافقني في أول أيامي، ومع الشاب الكردي الدمث أنجزت أولى مهامي. أخذني إلى الصرَّاف، حيث بدلت دولاراتي القليلة بالعملة المحلية "الليفة"، ونبهني أن لكل واحد سعره، وعليّ أن أختار الصرّافين المضمونين والسعر الأعلى. ساعدني على شراء خط بلغاري لجوّالي، وبدأنا بإرسال رقمي الجديد إلى أصدقائي وأقاربي.

أثناء انغماسنا بترتيب شؤوني الخاصة، كنت أسأله عن حياته، وأخبرني أنه درس الإعلام في جامعة دمشق، بعدها التحق بالجيش لأداء خدمة العلم الإلزامية، وحين اندلعت الثورة تسلل إلى غازي عنتاب، ومن ثمة إلى بلغاريا التي يقيم فيها منذ عامين. كان مثلي يتحدث بحماسة وحب عن بدايات الثورة، ويغص حين يصل حاضرها، وبرفقته قضيت يومي الأول في صوفيا، انتقلت من شارع

لآخر ومن حي لحي، ركبت جميع أنواع المواصلات العامة: الترام والترولي والمترو وباصات النقل الداخلي. عرَّفني على السوق العربي وبعض المطاعم السورية. دعوته إلى الغداء في مطعم "تبولة"، ودعاني لشرب القهوة في "الميماس"، وأثناء جلستنا في المكانيّن التقيت بالعديد من السوريين، بعضهم كنت أعرفه من أيام الدراسة، والبعض الآخر تعرفتُ به للتو، لكني فوجئتُ أن الجميع يعلم بقدومي، مع أني لم أخبر أيًا منهم، واستغربتُ أنهم يعاملونني كسائحة مقتدرة، لا كنازحة تبحث عن بلد يؤويها.

أنظر من حولي، وأرشيف ذاكرتي لا يتطابق مع البث الحي للصور. تغيَّرتْ الأسماء والأشكال والأزياء، تبدلتْ طرز العمارة، وواجهات المرافق والمحال التجارية، امتلأ الفضاء العام بالمباني الضخمة، العالية، وبالطرق العريضة، والجسور والأنفاق، وانتشرتْ السلاسل العالمية من المطاعم والمقاهي والأسواق العالمية، المكدونالذ والكنتاكي والكوستا والبينتون... فقدتْ صوفيا بساطتها، ولم تعد حديقة وارفة، تتناثر في جنباتها الأبنية الواطئة، وتزينها الكنائس القديمة ومراكز الثقافة، صارت عاصمة مختلفة تمامًا عن تلك التي لم تبرحْ مناماتي.

خلال تجوالي الطويل مع الشاب اللطيف، أفزعتني كلاب الشوارع الكبيرة السارحة في كل مكان، وصدمني وجود المتسوِّلين البلغار، وحين وضعتُ علبة تبغي على الطاولة في المطعم، صادف أن عددًا من العابرين سألوني ان أعطيهم سيجارة، بعدها وأنا أرشف

قهوتي في المقهى، راعني مشهد العجوز الذي ينبش القمامة، ويقتات على فضلات الآخرين. لم أرَ هذا الفقر المدقع أثناء دراستي، ولم أجد صوفيا نظيفة كما عهدتها، ومن التقيت بهم يوصونني أن أنتبه من النشالين، وكنت أضحك، من سيفتح حقيبتي سيترك لي بعض النقود.

أنهى صديقي القديم دوامه في المساء، والتحق بنا، ثم اصطحبني إلى منزله، وإلى ساعة متأخرة من الليل حدثني عن طفولته الشقية في الحسكة وعن ولع الأكراد بالتصوّف، واسترسل في الحديث عن الجان، حتى ظننت أنه يعاني من خطب ما. صديقي الطيب شاعر، ولم يكن من الصعب التكهن أنه يفتقد الدفء العائلي، ويعاني بعض الاكتئاب، زوجته غائبة باستمرار، وعلى عاتقه تقع أعباء المنزل ورعاية ابنه.

بتُ ليلتي الثانية على سريره، وفي الصباح أوصلني إلى محطة النقل الداخلي. كان عليَّ أن أسافر إلى بورغاس، لألتقي أم وأب الصديقة التي وجهتْ لي الدعوة إلى بلغاريا، وبموجبها مُنحت تأشيرة الدخول. شعرت بالضيق، صديقتي تعيش في باريس، وأنا لا أعرف والديّها، لكن لا بد من القيام بهذه الرحلة الغامضة، لتسجيل إقامتي لدى شرطة المدينة التي أصدرت الموافقة على دعوتي.

قضيتُ المسافة الطويلة نائمة، وحين وصلت المدينة الساحلية الوادعة، كان الوالدان بانتظاري، واستقبلاني بلطف أدهشني، وحفاوة لم أتوقعها. كانت علامات الثراء والكرم تبدو جليّة على أهل

صديقتي، سيارة فخمة نقلتني إلى منزل أنيق من دوريّن، كان دوره العلوي مخصص لي وحدي، وفيه نعمتُ بكل وسائل الراحة. مع الأم تجولت في حديقة بورغاس الواسعة وغسلت روحي قرب شاطئ البحر. على مائدة العائلة العامرة تحدثت بلا حواجز، مازحني الأب وضحكت من قلبي، وعلى شرفتي المليئة بالنباتات العطرية شربت قهوتي ودخنت، وحين كانا ينظران إليَّ بذاك الحنان ويقولان "لقد عانيتِ الكثير"، كانت دموعي أسرع إلى التعبير عن امتناني.

غادرتُ جنتي المؤقتة بعد ثلاثة أيام، وعدت نشيطة إلى صوفيا، وقبل أن ينقضي الأسبوع حالفني الحظ، واستأجرت شقة صغيرة في منطقة هادئة، قريبة من مركز المدينة. كانت أرخص من كل الشقق التي زرتها، لكن أجارها يفوق ضعف المبلغ الذي ذكره لي صديقي، ولم تكن مزودة بأي من أدوات التدفئة، وكان يعوزها الكثير من أساسيات العيش. بعد يومين زارتني صديقتي البلغارية، وملأتها بما كان ينقصها من كسوة النوم وأغراض المطبخ، وأهدتني تلفازها القديم.

نظفتُ سكني، رتبته، وصلته بالإنترنت، وقبل أن ألتقط انفاسي، بدأت عملي الجديد في القسم العربي للإذاعة البلغارية، ومنذ يومي الأول انشغلتُ بترجمة المقالات، وفي الثاني دخلتُ الاستوديو لأقرأ المواد التي أُترجمها، وفي عطلة نهاية الأسبوع لم أسترح، ولم ألبي أيًا من دعوات أصدقائي للسهر أو النزهة، أوصدت بابي، وجلست أكتبُ لـ"نوافذ" دخلي من الإذاعة لن يغطي أجار غرفتي.

أسترق النظر إلى دموع السماء وهي تنقر نافذتي، وأحس وأنا أنهي مقالتي أني أسحبُ نفسي الأخير. أستلقي قليلًا، ثم أبدأ دورة التنظيف والطهي والغسيل، بعدها أجر قدميَّ المنهكتيّن إلى الحمام، أغتسل، أنام قلقة، وأنهض مسرعة إلى عملي. في طريقي تطلع الشمس وأشتاق إلى الدنيا التي تبتسم من حولي. تتكاثف الغيوم وتمطر، أغرق في الوحل ويخرقني البرد في عزّ تموز، فكيف يكون شتائي؟

صوفيا: يوليو 2014

غابة ملعونة وأحلام في ذِمة المهربين

كان يؤدي خدمة العلم الإلزامية في دمشق، وكان من المفترض أن ينهيها بعد عام من اندلاع الثورة السورية، لكنهم احتفظوا به. شعر ببعض الامتعاض وتناسى الأمر، كان وضعه جيدًا مقارنة بزملائه، فهو يعمل سائقًا عند اللواء المسؤول عن قطعة عسكرية، كانت في موقع الإدارة، ولم تشارك في المعارك الضارية ضد الثوار. لم يكن يرتدي بزّة المجندين، وكانت لديه ساعات خدمة محددة يوميًا، بعدها يعود إلى منزله كأي موظف، كما أنه كان يتمتع بعطلة نهاية الأسبوع.

لم يكن ليفكر بالانشقاق عن الجيش السوري، لو أنه لم يشعر بتوجس اللواء منه ورغبته بإرساله إلى أرض المعركة في عاصمة الثورة حمص، حينها ملأ استمارة إجازته يوم الجمعة، وقطع تذكرته على طائرة متجهة من دمشق إلى جبلة، ثم من جبلة إلى القامشلي. مكث متخفيًا في مدينة الحسكة لخمسة شهور، بعدها خرج متسللًا إلى تركيا، أو على حد تعبيره: "بالتهريب".

"كيف؟" سألته، قال: "عن طريق مهرِّب من جماعتنا"، "أية جماعة؟"، "جماعتنا الكورد"، "كم دفعتَ لهم؟"، "هربوني لقاء خمسة آلاف ليرة". "هل كنتَ وحدكَ؟"، "لا، كان معي قرابة عشرين شخصًا من المدنيين، منهم الأطفال والنساء، عبرنا الحدود السورية معًا،

وافترقنا في تركيا. اتجهتُ إلى مسكن عمي في غازي عنتاب، وبقيتُ عنده ستة أشهر، بعدها غادرتُ إلى بلغاريا".

وفي بلغاريا التقيته أثناء زيارتي لأحد الأصدقاء، شاب في الخامسة والثلاثين من عمره، أسمر اللون، أهيف القامة، منطوي الطبع، ويطل تهذيب فطري من عينيّه الواسعتيّن. لم يدخل الجامعة ولا حتى أكمل المرحلة الثانوية. في فتوته استهواه الكومبيوتر وتفرّغ له، وبجهده الخاص تعلّم أصول الصيانة وتصميم المواقع –كما ذكر لي– سألته، إن كان ينوي انتهاز فرصة وجوده كلاجئ لمتابعة دراسته الثانوية والجامعية؟ أجابني أنه لا يحب الدراسة.

رافقني سامي إلى عدة أماكن، حين كنت أضل دربي في أيامي الأولى بصوفيا، وحدثني عن تجربته الغريبة مع التسلل من دون تأشيرة نظامية. كنت سمعتُ الكثير عن العبور اللاشرعي للحدود الدولية، لكنها أول مرة ألتقي بمتسلل من لحم ودم، ويخبرني بلا أدنى تحفُّظ عن أخطار رحلته ومفارقاتها. ضحكت من قلبي وهو يروي لي قصته، وقلتُ له: "سأكتبها باسم مستعار"، قال: "اكتبيها باسمي الحقيقي، ما عادت فارقة معي". ومن نبرة صوته أحسست الخيبة التي تعتريه والانكسار الذي يعصر روحه.

استفسرتُ عن سبب مجازفته بالتسلل إلى بلغاريا، مع أن أوضاع السوريين في تركيا جيدة، كما يُروى؟ قال: الأتراك يعطوننا إقامات مؤقتة، يمكن تجديدها كل عام، والإقامة لا تكفل سوى الرعاية الصحية والأدوية فقط، وأنا لم أجد عملًا. أضاف: "جينا على

بلغاريا، على أساس أنو فينا ناخد هوية وجواز سفر، ونروح وين ما بدنا". استوضحته كيف خرج من تركيا؟، شرح لي أنه سافر من غازي عنتاب إلى اسطنبول، ثم إلى أدرنا، حيث التقى بالمهرّب الثاني، واتفقا على العملية لقاء ستمئة دولار.

أخبرني أن التهريب يمر عبر غابة كبيرة، تفصل ما بين البلدين، وأنه كان برفقة شاب آخر، أوصلهما المهرّب إلى بداية الغابة في الثامنة مساء، وقال: "امشوا بخط مستقيم وبعد ساعة بتصيروا ببلغاريا". استطرد سامي: كان الدرب صعبًا، مليئًا بالأشجار، مشينا ساعة وساعتين ولم نصل. حلَّ الليل، خفنا وتهنا، ومن التعب رمينا كل أغراضنا عدا اللابتوب. جُعنا، ولم يكن معنا طعام أو شراب ولا حتى نقود، مهرّبنا أوصانا ألا يكون معنا ولا قرش، حتى جوازات سفرنا أخذها، وزيادة على هذا النحس صدمتني شجرة كبيرة ونحن نمشي، وانكسرتْ نظارتي.

قررنا أن ننام حيث نحن، وفي الصباح أكملنا طريقنا. مشينا طويلًا، ورجونا الله كثيرًا أن نصل إلى أي مكان مأهول. أخيرًا دخلنا قرية، وتبيَّن لنا أنها تركية وليست بلغارية، حاولنا الاتصال بالمهرِّب، لم يرد، والموبايل بدأ ينتهي شحنه. نمنا في الجوامع، وجلسنا على الطرقات، ساعدنا أحد الأتراك أن اتصل بأهلي، وأرسلوا لي قليلًا من المال، وبعد يومين من التشرد والجوع والعطش نزلنا في فندق، أكلنا واغتسلنا، والتقينا بالمهرِّب من جديد. أدخلنا من نفس الطريق، ومرة أخرى تهنا في نفس الغابة، ووصلنا إلى

قرية تركية، كان فيها كافتيريا، دخلناها، واستقبلنا أصحابها، أطعمونا، وأبلغونا أن ثمة حافلة ستقلّنا إلى أدرنا في السابعة من صباح اليوم التالي.

بتنا ليلتنا في الجامع، وفي الصباح عُدنا إلى أدرنا، وحين رآنا المهرِّب، كاد أن يطيش صوابه، وصرخ: "كل الناس عم تروح، ليش أنتوا عم ترجعوا؟". في الثانية ليلًا انطلقا مرة ثالثة نحو الغابة الملعونة، هذه المرة كان معنا أسرة وشابيّن آخريّن، ودخلنا من درب آخر، مشينا وتهنا، لكننا استخدمنا الجهاز النقال لكشف طريقنا، وبعد ساعتين من طلوع الفجر وصلنا قرية بلغارية، وحسب الاتفاق حين رآنا بعض الأهالي أبلغوا الشرطة عنّا، واحتجزونا في المخفر ليومين. كان الطعام قليلّا جدًا، ولا مكان للنوم بالنسبة لنا نحن الشباب، أما الأسرة فقد كان وضعها أفضل. في اليوم الثالث نُقلنا إلى كامب في صوفيا، وهناك استلمني أخي الذي سبقني إلى بلغاريا قبل عام.

بدأت حياة سامي الجديدة، أسوأ مما كانت عليه في تركيا. سكنَ في غرفة مزرية مع أخيه، وعمل لدى شركة سورية بمئتي دولار شهريًا. لم يتعلَّم إلاّ القليل من المفردات البلغارية، ولم يخالط أحدًا بسبب فقره، وبعد عشرة شهور من العزلة والانتظار حصل على جواز السفر البلغاري، ويرغب في السفر إلى ألمانيا علَّه يجد حلًا لمأزقه، لكن أحواله المادية لا تسمح.

سألته، إن كان أي من العاملين في مجال الغوث من الجالية السورية الحرة عرض عليه المساعدة؟ قال: "ولا حدا، كلهم كذابين، والمعونات التي تصلنا، يتقاسموها بين بعضهم". سألته، هل أحبَ بلغاريا، أو خالط أحدًا من البلغار؟ قال "البلد حلوة، بس ما في شغل، وفي عنصرية، حبيت البنات البلغاريات بس".

سامي واحد من آلاف النازحين السوريين المتسللين إلى أوروبا، الذين وقعوا ضحايا شبكات الاتجار بأحلام العاطلين عن العمل والحياة، وعلى الرغم من تعاطفي الكامل معه غرقتُ بمشاكلي الكثيرة، ولم أعد ألتقيه، وكدتُ أنسى قصته، لو لم تقفز إلى ذهني من جديد، حين عرض عليَّ أحد المعارف تهريبي من بلغاريا إلى أي بلد في أوروبا الغربية، لقاء ألف ومئتيّ يورو، قلتُ مذعورة: "لا"، ولذتُّ منه بالفرار.

من أرض الغياب

وُلدتُ قبل وفاتي
بدقيقة وأربعين عامًا
بعدها
ابتسم لي قبر ماكر
استدرجني
وأحاطني من جميع الجهات
سألته: أين غادرتني الحياة؟
قال: انسيها، وتذوقي طعمي!
لماذا لم أحظَ بجنازتي؟
صرختُ من الغضب
ضحكتْ شاهدتي
وكتبتْ على خدها الأيمن
عاشتْ وحيدة
ومضتْ بلا مشيّعين
...
مع الثورة
نهضتُ من رفاتي
ولا أزال في سنتي الخامسة
أتعلَّم لغة الغرباء

كيف أترهَّل

يترمّدُ شعري، ويسقط؟

وأنا في أوجِ طفولتي

لماذا أشعر أن جميعهم تخلوا عني؟

سألتُ طبيبتي

قالت: إنها علامات الاكتئاب

اكتئاب المدنين على الأحلام

قلتُ:

أريد حريتي.

...

من مكاني البعيد، أُحصي وقتي بعدد المُعتقَلين. وحدها السجون السورية تكتسي بطابع أممي أصيل، تتسع لكل الجنسيات والأقليات من السوريين واللبنانيين والفلسطينيين وباقي العرب والأجانب، والجميع متساوون بمقدار حصتهم من التعذيب، لا يعلمون متى يُفرج عنهم؟

لم أدخل السجن السوري، عشت حياتي، أنتظر خروج أحبتي من وراء أسواره العالية، حتى صار قلبي مثل زنزانة موحشة آخر الليل.

...

كنتُ أحتسي قهوتي على رصيف المساء، حين لاحظتُ سيدة متقدمة في السن، تدفع أمامها عربة للأطفال، تبتسم لمن فيها،

وتناجيه بحنان أثار فضولي. مططتُ عنقي لألمح الصغير في العربة، لم أره، رأيت دمية بحجمه.

مشيّتُ إلى موعدي مع الفراغ، استوقفتني سيدة تحمل جريدة اليوم، سألتني إن كان بإمكاني، أن أقرأ لها ما كُتب تحت صورة تودور جيفكوف، سحبتُ الجريدة من يدها بفضول، ما الذي يكتبونه عن آخر رئيس في بلغاريا الشيوعية؟ رحل منذ زمن بعيد، وبالكاد يأتي أحد على ذكره؟ نظرتُ حيث أشارت السيدة بإصبعها، لم تكن صورة جيفكوف، كانت الصورة لجورج كلوني.

أخذتُ حافلة الضياع، قطعتُ تذكرتي، وجلستُ على المقعد المعاكس لحركة السيّر، قابلني رجل، نظر إليَّ وحيّاني، أحنيّتُ رأسي قليلًا، ورسمتُ ابتسامة صغيرة على شفتيّ. التفتَ الرجل إلى أمه، وقال بصوت سمعه جميع الركاب: "أخبريهم أني لا أخالط سوى أولاد الذوات، وأني لا أريدهم أولئك المثقفين". كرر العبارة أكثر من مرة، وفي كل مرة كان صوته يرتفع أكثر، وكانت الأم تهدئ من روعه. هل كان يعتبرني واحدة من بنات الذوات أم من المثقفات؟ لست أدري، لكني اضطررتُ إلى النزول من الحافلة، حتى يهدأ روعي.

...

عند الفجر

صعدتُ القمر

كانت دموع السماء قريبة

وتحت مظلتي

رأيتُ الحب

سألته: لماذا تأخرتْ؟

قال: كنتُ أحرس الأرض

وأنا؟

قال: لا تستفزي السَّراب

دعيه يضيء وقت يشاء

–وماذا بعد؟

–سنكبر معًا في الحكاية

–وماذا بعد؟

–اتبعيني، ولا تستيقظي أبدًا

أخشى عليكِ من الحنين.

أبوس روحك حلب

ليتَ سنتي الماضية، كانت جميلة بقدر ما بدتْ عليه في شريط الذكريات الذي صنعه لي الفيسبوك. كان عام المحرقة الكبرى، والتنكيل بالضحية، وكانت حلب تنزف في داخلي، ولم يكن بقربي غير هاتفي، أتصفحُ عليه المزيد من أخبار جريمة بقيت بلا عقاب، ولستُ حجرًا حتى أحافظ على هدوئي وأعصابي.

في حلب أودعتُ ذاكرة أعيادي، منذ طفولتي وحتى حصولي على الشهادة الثانوية. في "الزبدية" كان منزل جدي لأمي، وفي "سيف الدولة" كانت تسكن خالتي، وعلى امتداد الدرب الفاصل بين الحيّين كان يقطن العديد من أقاربي، وكنت أغادر مدينتي الساحلية مع أسرتي، ونقضي أيام الفطر والأضحى، ونحن ننتقل بين بيوتهم الدافئة.

وحدهم الحلبيون يقبلون الروح للتعبير عن الحب.

"أبوس روحك حلب".

تستيقظ ملامح المكان والبشر من بين دموعي، أتأمل العمارة الأنيقة، والحجر النافر الذي يكسو المباني، اسمع جدتي تغني عبد الوهاب، وهي تسقي الفل والياسمين، أرى قريباتي بأثوابهنّ القصيرة، أذكر سهرات "الموغامبو" في السبيل، أمشي في أسواق العزيزية وفي حديقة الحيوان، وأدور حول القلعة الشامخة. كانت المدينة

العريقة، تنسج هويتها المعاصرة، قبل أن يضربها حافظ الأسد بعصاه الغليظة.

في جامعة حلب كانت تدرس أختي، وكان أول الشتاء القارس وآخر الليل، حين داهم عناصر الأمن منزل خالي بحثًا عنها، لم تكن عنده، كانتْ عند جدتي، وما إن خرجوا حتى اتصل بها، وأخبرها أنهم في الطريق إليها.

خرجتْ أختي على عجل، زادها آية الكرسي، قرأتها عليها جدتي قبل أن تغادر دار الحب. إلى أين تذهب، وأين تختبئ؟ لا تدري، وزادها لا يقيها من البرد والخوف والجوع في الشوارع المقفرة عند الفجر. وحيدة وعزلاء خاضتْ المعركة مع الوحش، وحين هدَّها التعب وجدتْ نفسها تمشي إلى منزل رفاقها، وهي على يقين أنها ستجد الأمن بانتظارها.

دخلتْ أختي دار العذاب وهي طالبة لم تكمل سنتها الثانية، ولم تنهِ ربيعها الحادي والعشرين. أُحيلت إلى فرع التحقيق العسكري بحلب، وبعد شهر إلى فرع فلسطين بدمشق، وأخذت نصيبها من حفلات التأديب، وحين كانت تسحب قدميّها المتورمتيّن، وهي تخرج من غرفة التحقيق، لمحتْ حبها الأول بين دفعة جديدة من المعتقلين.

قضتْ ستة شهور في مهجع مكتظ، تحت الأرض لا يرى الشمس، كان الطعام كريهًا وقليلًا، وكانت تغتسل بمياه باردة وبالقليل من سائل الجلي، تغسل ملابسها الداخلية وترتديها على الفور، لأنها لا تملك غيرها، وحين أُحيلت إلى سجن النساء في دوما وخرجت إلى

الضوء، كانت فقدت نصف شعرها الناعم الطويل، وكانت طبقة من العفن تكسو جلدها وجفنيّها.

لم أكن هناك، وكانت دراستي الجامعية في بلغاريا أنستني السجون في بلدي، وحين هاتفتُ أمي وأخبرتني بالمأساة، سقطتْ السماعة من يدي، وغرقتُ بدموعي حتى الصباح. بعدها صارت عاصمة مسراتي سجن كبير، في النهار تزحف نيراني وعليها يتمايل وجه أختي الطفولي، الجميل، وفي الليل أسمع صوتها يناديني ويستغيث، ولم ينتهِ الكابوس إلاّ بعد أربعة أعوام، حين حضنتُها بعينيّ.

خرجتْ أختي غرناطة من سجنها، وبقيتُ أنا هناك جامدة مثل تمثال من الطين، أصغي إلى أنين المعتقلين في الليل. بعد سنوات تجرأتُ وسألتها كيف عذبوكِ؟ لم تكد تكمل جملتيّن حتى ارتعش صوتها، وسالتْ من عينيّها دمعتان، ضممتُ جرحها إلى قلبي وخجلتُ من نفسي، أني فكرت أن أفتحه من جديد.

في البدء كان الحب

لاجئان في بلدٍ باردٍ
أسّترقُ النظر إلى عينيّكَ
ألمحُ شغفي

هل كانت الحياة أجمل قبل ولادتي؟ هل ستغدو كذلك بعد وفاتي؟ لا أدري؟. جئتُ في زمن الأحلام البيضاء، والطغيان الأسود. عشتُ بين نارين، لم يضئني اللهب، لسعني، ولسعني، حتى انطفأتْ شعلتي.

أعرف أن التقوقع في رحم أمي، لم يرق لي، فخرجت إلى الحياة قبل موعدي، وكنت أصغر من راحة اليد، وأضعف من عصفور، زرقاء أتعثر بأنفاسي، لم أصرخ، فتحتُ عينيّ، وابتسمتُ لانتصاري الأول على الطبيعة. ظنَّ أهلي، أني أسحب هوائي الأخير، وأدخلوني إلى الحاضنة الزجاجية، حينها بكيتُ بأعلى صوتي، لا أطيق الأماكن المغلقة ولا القيود، وكنت أزقزقُ من الفرح، كلَّما نزعوا عني ملابسي. أحبُ العُريَ، خصلة ورثتها عن أُمّنا حواء.

كنتُ طفلة وادعة، ولم أكن بريئة تمامًا، أتأمل، أفكر وأجادل مثل الكبار، وكنت أميل إلى جاري، وتستهويني لعبة العروس والعريس.

لا تقربي التفاح، قالوا. سألتُ: لماذا، أرضنا تفاحة، ونحن أولاد التفاح...؟!. لم يجبني أحد، واكتفيتُ بلاء الأمرِ والنهي. تعلَّمتُ أن أحيا خارج رغبتي، أكره الحب العذري، وأقع فيه. أصبحتُ أكثر

طواعية للاستلاب، وصرتُ أخشى جسدي، وأخاف عليه، بنيت الحاجز بعد الحاجز بيني وبينه، أنهكته واستنزفني في حروب طاحنة، وكلانا لم يعرف الصلّح مع ذاته، ولا هدأة البال.

كانت الحرب في داخلي، وكانت في كل مكان من حولي. كنا شعبًا مقموعًا، يقارع الإمبريالية وإسرائيل، نعيش في مزاد الشعارات والوعود، يؤرق ليّلنا كابوس الاعتقال، وتطحن نهارنا كسرة الخبز.

لا تقربي السياسة، قلتُها لنفسي، وتعلمتُ الصمت. نصبتُ خيمتي على حدود الهامش، خارج أدوار العائلة والعشيرة والقائد المفدَّى، وكانت تروق لي عزلتي، تروق لي نعمة النبذ.

مطالبي صغيرة، يكفيني أن أضعَ صوتي في صناديق الاقتراع، أرشف قهوتي على مقاهي الرصيف، أدخن وأكتب، من دون أن تتبعني عين الرقيب، وكنت أحلم أيضًا بالرعاية الصحية، ودار عُجَّزٍ نظيف، يؤويني حين أَشيخ.

وأنا أبلغ خريف العمر، بلغت اليقين أن أيًا من مطالبي العادلة، لن يتحقق في دار الحرب والخوف. ما من خلاص، زمننا نحن السوريين معطَّل ومعلَّق بين أحكام الطوارئ وأحكام الشريعة، وسيبقى بلا حراك، إن لم تنتصر ثورة الربيع.

من يومها وأنا أشعلُ شمعة الحب

الوحش أمامي

وفي دمي يتمدد القتلى

...

هل رأيتكَ تحضنني

أم كان حلم

هل سمعتكَ تناديني

أم كان صوتي

هل تصغي إليَّ

أم أنني أحادثُ نفسي؟.

بطاقة المؤلفة

تهامة الجندي

صحافية وكاتبة من سوريا

تقيم في بلغاريا

صدر لها:

- **بِاسْم الشَّوْق (سبتمبر 2021).** شعر. كيندل– أمازون (KDP).
- **الحرية والوحش: عشر سنوات من الثورة السورية– مقالات وحوارات (6 يناير 2021)**، كيندل– أمازون للنشر الذاتي.
- **صورنا الماكرة (ديسمبر 2017).** رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان.
- **الاتجاهات الحديثة في المسرح السوري 1995–2005** (2006)، نينوى للدراسات والنشر، دمشق، سوريا.
- **حديث النجوم (2006)**، الكنوز الأدبية، بيروت، لبنان.
- **الإعلام العربي– قلق الهوية وحوار الثقافات (2005)**، نينوى للدراسات والنشر، دمشق، سوريا.
- **جهات الغياب (2005)**، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا.
- **لا توقظ الحنين (1999)**، دار كنعان، دمشق، سوريا.



تهامة الجندي

صوَرنا الماكرة

حياتي الفقيرة، المسروقة، المحروقة، المهتوكة، مثل حيوات أغلب السوريين، لم تكن استعادتها سهلة عليّ، تعودّتُ أن أطمسها لأحمي نفسي، وكان عليّ أن أرتق ثقوب ذاكرتي، وأرمم مناطقها التالفة، أدخل دهاليزي ببطء، وأنكأ جراحي جرحًا بعد جرح، أنبش أسراري، وأبكي وأنا أحررها وأبصر على الأوراق خيبتي، والألم الذي يصرخ في أعماقي. كنت امرأة من ورق، تنمّق تجارب الآخرين، وفي بيروت كتبت حكايتي، ووجدتني أحيا، وأجذب القراء بجرأتي، أنا الإعلامية، السورية، المهملة، التي اقتصرتْ معارضتي على الصمت والمقاطعة، وكنت أموت خوفًا، أن يسحبني الأمن من سريري بعد كل زلّة لسان.

رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

ISBN 978-9953-21-668-3
9 789953 216683 >